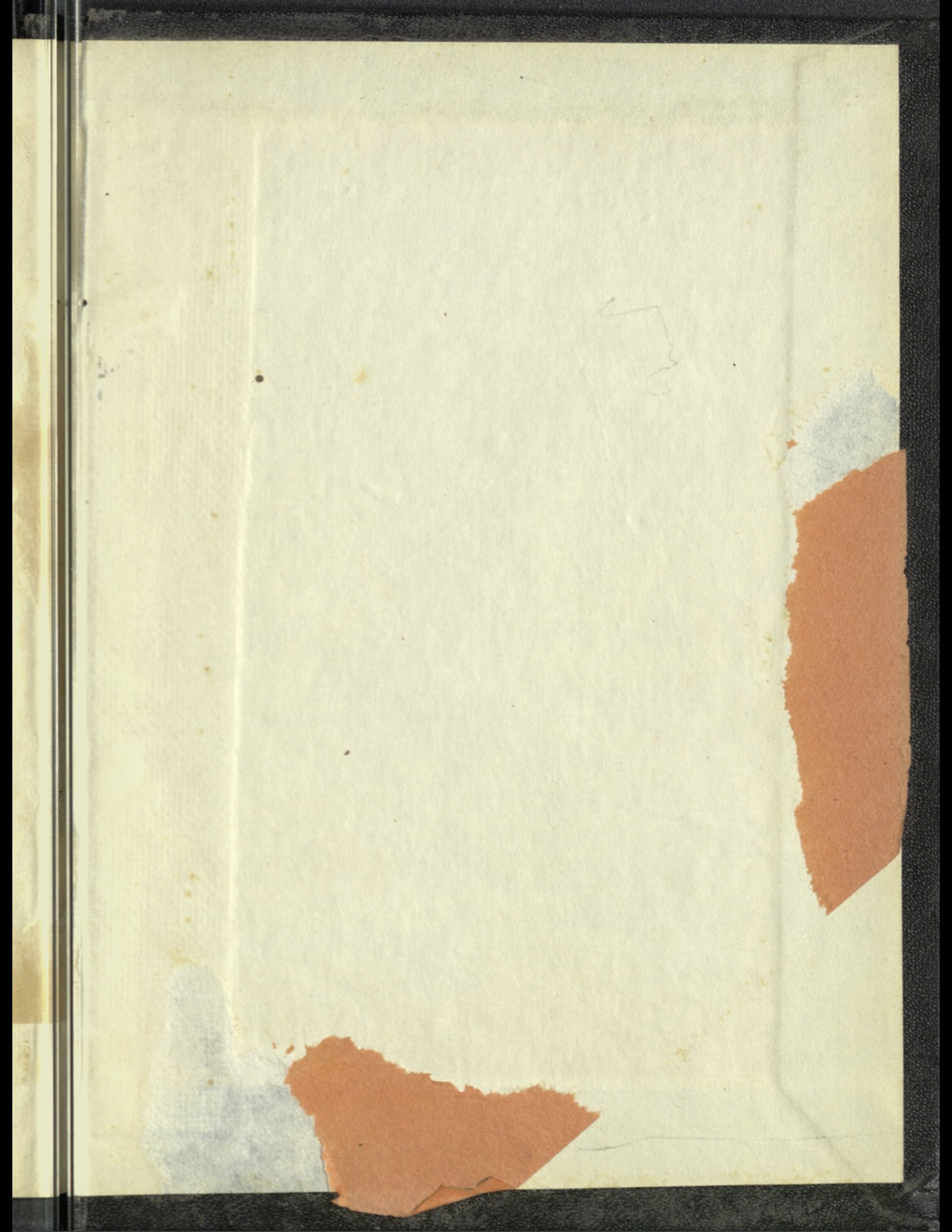
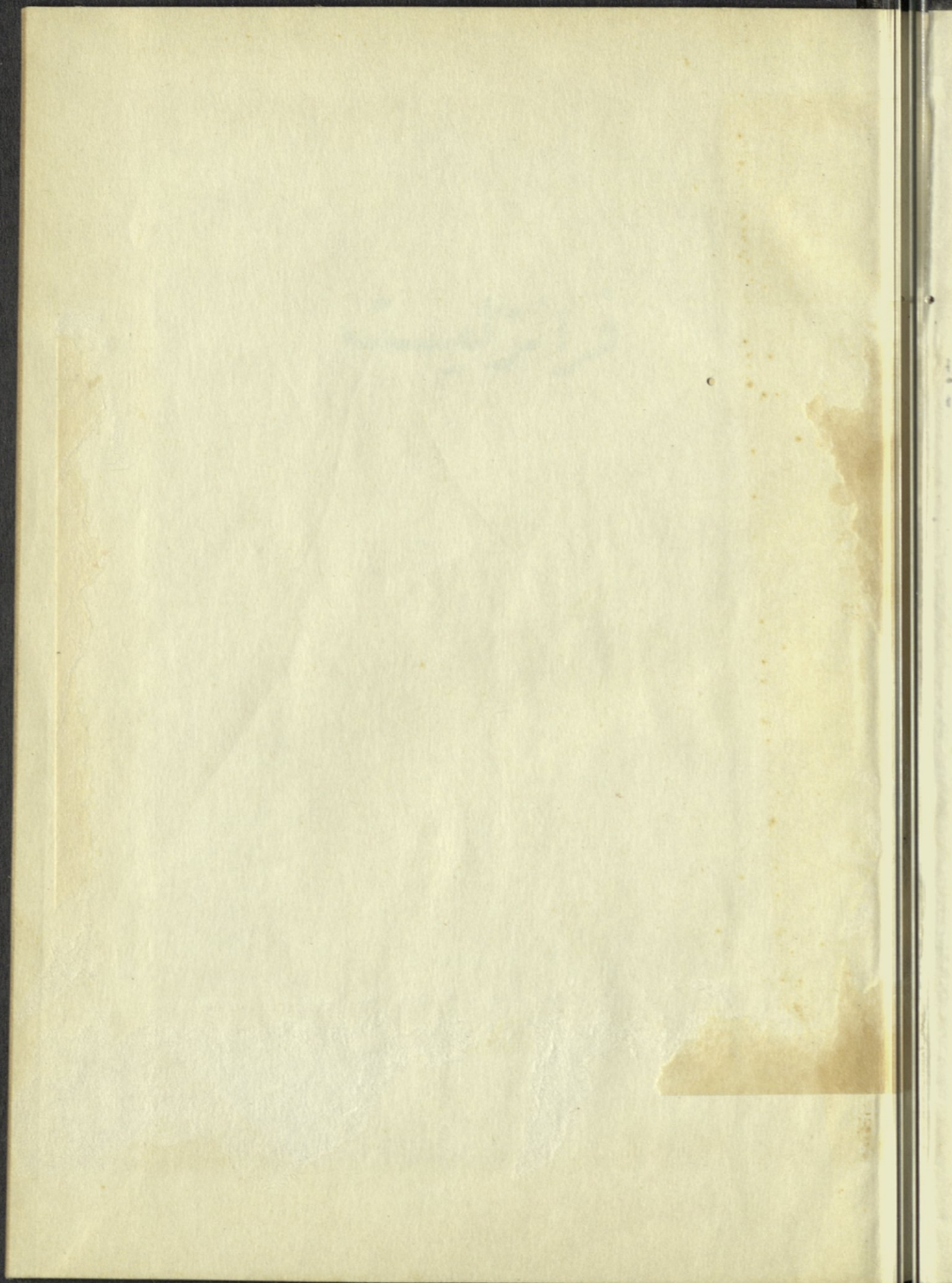
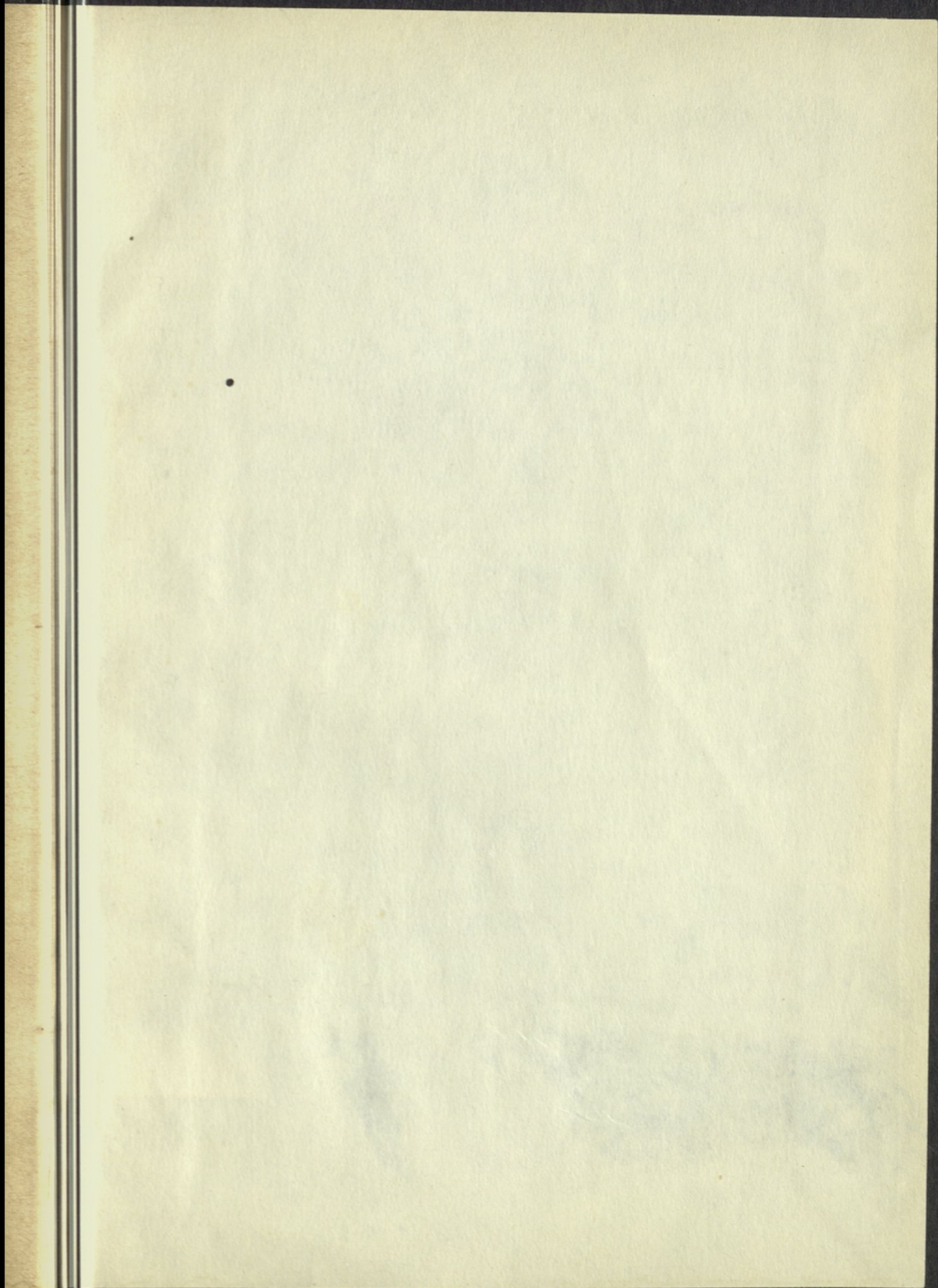


الهنداوي

فرانز ليست

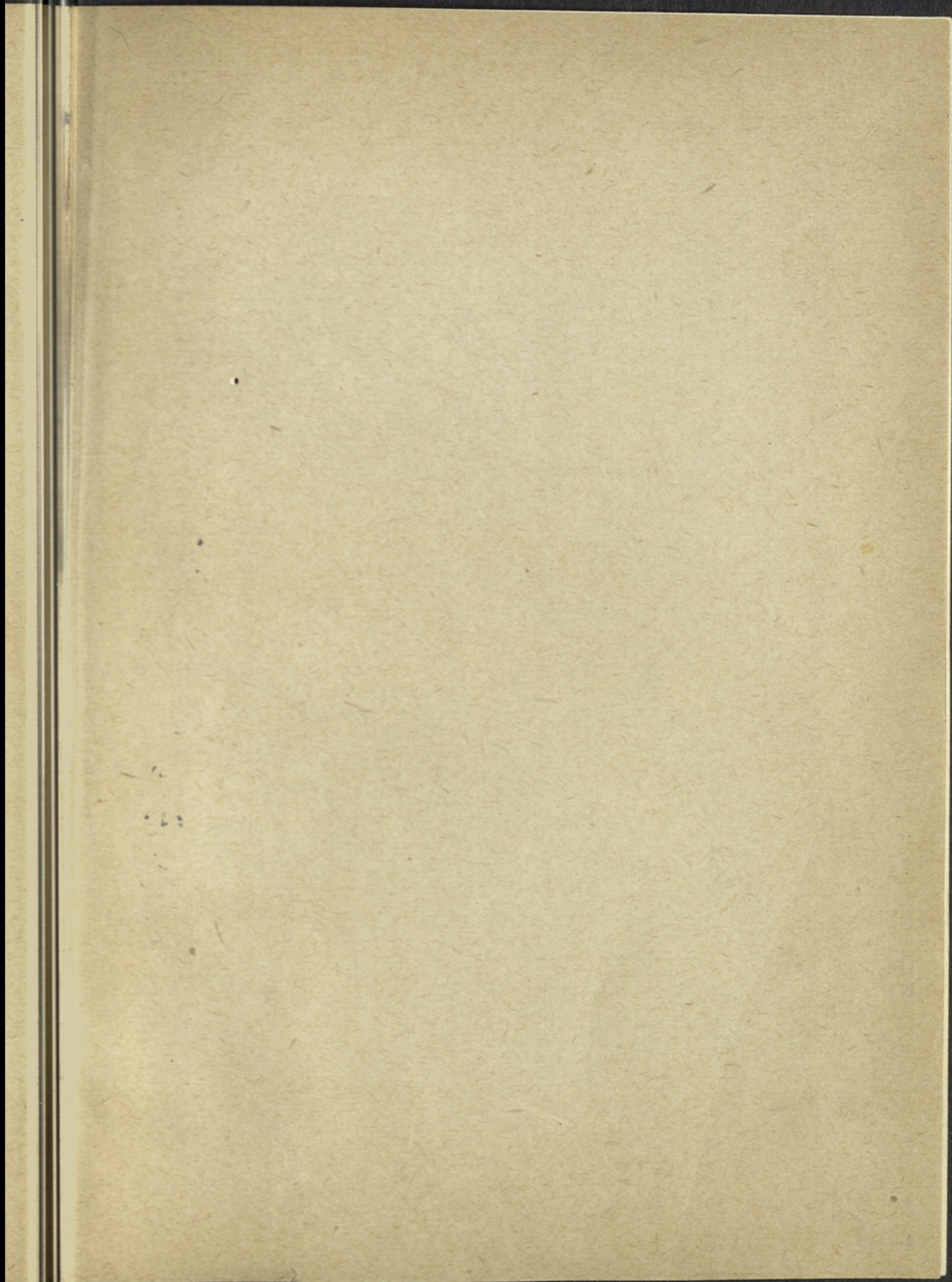






۷۷

فرانز لیست



فيل الجندوى

927.8439

L774hA

c.2

فرانز ليست

٨٢

اقرأ

دار المعارف للطباعة والنشر

اقراً ٨٢ — سبتمبر سنة ١٩٤٩



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

فى قرية « ريدنغ » المجرية ، التى تنعم بالسكون الأنيس ،
 والظلال القصيرة ولد « فرانز ليست » . ولكن هذه الطبيعة
 كأنها لم يكن لها أثر فى جسده الهزيل . لقد كان هشاً العظام ،
 دقيق البنية ، حار المحس . ليس بينه وبين الحياة إلا صلة
 شعرة ، وليس بينه وبين الموت إلا أقصر منها ، حتى قطع
 أبواه الأمل من حياته مراراً ، وانتظرا موته بين اللحظة واللحظة ،
 وأعدّوا له النعش الذى يضم جثمانه ، ولكنه سلم . وكان أكثر
 ما يشغل الوالد من ابنه أن يرى أنامله سبطة ممدودة لتستطيع
 التنقل والسيطرة على أصابع البيان . وكان لذلك يواصل العزف
 من صباحه إلى مساءه . ويذكرون أنه بينما كان يعزف قطعة
 كثيرة الحركات قصرت يده عن حركة منها ، فمد أنفه ينقر به
 البيان .

وما كان أكثر الجدل الذى ينشأ بين أبيه وأمه حول المستقبل
 الذى يريدانه لولدهما . فهذا أبوه يريد أن يلقنه الموسيقى لأنها

لا تتعبه . والموسيقى هي المهنة التي أرادها الأب يوماً لنفسه
وأخفق فيها . وهذه أمه تخشى بريق عينيه حين يتناول القيثارة .
وهذا هو الولد ينقل طرفه بين صورة العذراء المعلقة على الجدار ،
وصورة « موزارت » تحف بها الآلات الموسيقية .
وإذا كان كثير من العظماء مدينين بعبقريتهم لأمهاتهم ،
فإن أم ليست كانت تقول لأبيه الطامح إلى بناء مستقبل ابنه
الموسيقى :

— إنك تحلم كثيراً . إنه ليست له عبقرية موهوبة . إنه
ولد عصبي فقط . وإن مطعمي الوحيد أن أرى خديه يتوهجان
حمرة . ونفسه تخلد إلى السكون .

— ها هم أولاء النور ! ... ها هم أولاء النور ... !
وما النور إلا فئة من الناس ألفوا نوعاً بوهيمياً من الحياة .
وجعلوا دأبهم التنقل من مكان إلى مكان : يلبسون الأردنية
المزركشة المحلاة بالمزق الغربية الملونة كأنها تزاويق الربيع .
هؤلاء هم النور ، يخرقون الطريق ، تعان معازفهم وأغانيمهم
عن مقدمهم . وكانت ظلال كثيفة من الغيوم المتلبدة تمنع
الشمس أن تصل إلى السهول المتموجة بالسنايل . اقتربوا من

القرية بخيلهم التي تبرق على أعناقها اللجم الفضية . عليها نساء
أرخين العقود على النهود ، ورجال توشحوا بالزنانير الحمر ،
وكلابهم تملأ الأجواء عواء .

رأت الأم هذا المشهد فأهابت بولدها :

— ادخل يا ليست !

لكن ليست توسل إليها :

— دعيني أسمعهم قليلاً .

وقف النور رويداً ، وأخذ أحدهم يعزف مرة عزفاً شجياً ،
ومرة عزفاً رخيماً ، وأخرى عزفاً عنيفاً مرقصاً . والآخرون يرقصون ،
ويتمايلون على عزفه . والمتفرجون مذهولون بألحانهم ورقصتهم . لأنهم
لا يرون في هذه الجماعة البوهيمية— إلا شعراً فاتناً وموسيقى هائلة .

هتف الصغير بأمه :

— آه ! ما أجمل هذا !

أجابته أمه :

— ولكن ... لا ! ادخل ! إنهم يريدون أن يعسكروا .

إنهم يسرقون ما تقع عليه أيديهم ، حتى الصغار .

ولكن فتاة نورية انفصلت عن رهطها وأقبلت على الأم :

— هل تريد سيدتى أن تشتري حلياً ، أو طوابع الحظ ،
 أو تريد أن أنبئها عن المستقبل ؟ هات يدك يا صغيرى !
 لا تخف ! مد يدك ! إننى أعرف المستقبل ، وأحسن التنبؤ
 به . اسمع !

مد الصغير يده ، ولكن الأم جذبتها ناهرة وليدها .
 — تعال ! لا يجوز أن تعتقد بأوهام الساحرات .

* * *

لم يكن بيت ليست بالبيت الفخم فى القرية ، وإنما هو بيت
 صغير ، تحيط به بعض شجرات قمية ، خلالها بئر ماء
 تمد فى حياة البستان ، ثم سياج يفصل البيت عن الطريق .
 كان من عادة ليست إذا تغيب أن ينتظره والداه فى ساحة
 القرية ، فإذا لم يجدها عاودهما القلق عليه ، فيتجهان نحو
 البيت ، فيشب إليهما من النافذة المفتوحة عزف متواصل .
 فتقول الأم :

— يا له من ولد عنود !

ويتساءل الأب :

— ماذا يعزف ؟ إنه لا ينقل عن « موزارت » ولا عن

« هايدك » . على أنه يكاد يشبههما في عزفه . إننى أعرف القطع
المسجلة عندى كلها . أما هذا العزف الذى أسمعه فهو عزف
غريب مجهول . من أين هذا العزف ؟

حقاً لقد كانت القطعة التى يعزفها كأنها تطير على أجنحة
بإيقاع لذيذ ، وجمل ذات أهواء عاصفة .

وقف الأب والأم ذاهلين حائرين فى خطب العازف .
وأخيراً كانت المفاجأة . إنه ليست الصغير ، تنقر أنامله أنامل
البيان ، بدون أوراق ولا ألحان . وقفت الأم مشدوهة بين
الأب والابن ، وفى عينها دمعة إعجاب . لأنها دمعة عبرت
عما تحسه الأم فجأة من عبقرية مكنونة فى ولدها تريد أن
تتفتح . هل هنالك « موزارت » ثان يريد أن يظهر ؟

قالت الأم :

— إننى بت أخشى عليه !

أجابها الأب :

— لا يا حنة ! إن الله أراد هكذا . هو الذى أعطاه العبقرية .

وهو لن يتركه ، أو يحرمه نصيبها المقدر منها .

وفجأة لمح الولد أمه وأباه ، فصاح :

— أبي ، أمي !

وكان الظلام يتراخى على الأشياء . وليست لا يرى إلا أباه
وأمه مجهشين في البكاء .

* * *

وسرعان ما ذاع شأن ليست العازف الصغير . فكان الناس
يأتون من البيوت القريبة والبعيدة لسمعوه . وكان أهل القرية
يجتمعون تحت النوافذ ليصغوا إلى عزفه .

وكان أول شأنه في العزف أن البارون « فون براون » — وهو
أعمى كان يرجو العزاء في الموسيقى — قد أقام حفلة في
« أدنبرغ » . وبالرغم من بعد المدينة عن القرية اصطحب
الوالدان ليست معهما . فكان الصغير — قبل ميعاد العزف —
عرضة لحمى شديدة انتابته . حتى إذا اقتربت ساعة العزف
استعاد نشاطه وطبيعته ، وصعد بخطوة ثابتة . فراحت أعناق
المتفرجين تتطاول ، والعيون تتداور لتستطلع هذا الصغير الذي
يواريه البيان عن الأنظار ، وسيدات الحفل وراء مراوحنهن
المزخرفة يتهاوسن :

— يا له من شاحب اللون !

- إن له أنامل سبطة .
 — إنه يستخدم أصابعه كرجل .
 — ما أصنفي عينيه !
 — وماذا يريد أن يعزف ؟
 — إنه بدأ ... إن هذا لشيء عجيب .
 كان عزفه عجيباً فتن السامعين . ولما انتهى صفق الناس
 له بحماسة . وتوافدوا على الأبواب لتحيته . لكنه انسل سريعاً
 ولم يقف .

* * *

- قال الأب ، في مساء يوم لزوجته حنة :
 — إن عندى نبأ خطيراً . إننا سنسافر .
 — إلى أين ؟
 — إلى قينا .
 وكانت قينا كعبة الموسيقى السامية .
 — وحالك أنت ؟
 — لا أريد شيئاً . إن حياتنا كلها ينبغي لنا أن نضحى بها
 من أجل صغيرنا . إنه سيعزف هنالك .

صاح الصغير ، وعيناه تلتمعان فرحاً :
 - ألي قيينا حيث أتلقى دروساً عالية ؟ إن فيها من ضروب
 الموسيقى ما أتمناه .

أما الأم فقد تولاهما الدهش
 - هل أضعت رشذك ؟ أنترك بيتنا وأثالثنا ؟
 - إننا سنبيعه .

- وردائي الخاص ؟
 - سأشترى لك ما تريدن عوضاً عنه .
 - ودجاجنا وأرانبنا ؟
 - تباع أو تهدي ...

تلك ليلة محسوبة في عمر ليست . لأنها وجهته نحو الحياة
 التي طالما تمنهاها .

وفي قيينا قاد الأب ولده إلى الأستاذ الموسيقي « زرنى » فامتحنه
 امتحاناً بدهياً ، فأعجب به ، وافتتن بمواهبه على رغم أنه
 لم يتجاوز التاسعة من العمر . وكم كانت دهشته فائقة حين
 أخذ يعزف قطعة لبيتهوفن ! فكانت أولى وصاياها له أن يكون
 تلميذاً نجيباً .

بعد قليل كتبت الصحف في قمينا أن التلميذ الصغير
سيعزف على المسرح . وقد أنبأ الوالد ابنه أن بيتهوفن قد يشهد
الحفلة ليستمع إلى عزفه .

— هل يأتي بيتهوفن يا أبي ؟

— سأطلب إليه أن يأتي . لكنه رجل قاس ، أخو جفوة ،
فيه من الإنس وحشة ، يجب الاعتزال . إن الرجل العظيم أصم .
آه لو رأيت وجهه الصارم ! أخشى أن ترى على وجهه سوء
ظنه بك . على أن بيننا وبينه موعداً بعد الظهر .

لقد كان الرجل العظيم في رداء يدل على فقره وقسوته .
وقد أخذ الصغير يعزف إحدى قطعه أمامه . ولبث بيتهوفن
جامد الحركة ، خافض الرأس ، تلحق عيناه أنامل الصغير
المتنقلة على أنامل البيان . حتى إذا انتهى لم يزد بيتهوفن على
أن قال :

— دور حسن منه . متى يعزف قطعته الخاصة ؟

عين الأب له موعد ذلك . فهزّ بيتهوفن رأسه ، ثم أغلق
عينيه ، وانتهى كل شيء في هذا اللقاء .

وفي ليلة العزف شاهد أهل قمينا رجلاً غريب اللباس والأطوار ،

يجلس في المقعد الأول دون أن يُحَيِّي أحداً . ولكنه - في أثناء عزف الصغير - قد صنفق إعجاباً به . وحين الانتهاء ارتقى هذا الرجل مدرج العزف باسطاً يديه القويتين ، وحمل الصغير بذراعيه ، وقبله في جبينه ، ثم غادر المكان ، وانسل بخطى وثيدة ثقيلة . ولم يكن هذا الرجل الغريب إلا الرب الأكبر للموسيقى ... هو بيتهوفن .

ملّ الصغير جوّ فيينا الأرسقراطي المحدود . وعاج نحو باريس المدينة التي كانت محط الموسيقيين والفنانين ، كأنه لم يرض بقيينا موطناً بعد ما ضحى أبوه ببيته وحياته من أجله . وكان كل مطمعه أن يدرس في معهدها الموسيقيّ الذي يعجل له الوصول إلى قمة المجد ... وما كانت هذه الرحلة لتلقى عناداً أو تأجيلاً ، بل ما كان أقرب باريس من ليست ! وما أقرب ليست من باريس !

وفي صبيحة الوصول إلى باريس دخل ليست وأبوه على مدير المعهد الموسيقيّ « شورينى » ، فكان وراء مكتبه ينتظرهما كقاض وراء منصة الحكم . فقدموا له ما يحملان من توصية بهما من أمير « فيينا » فرحب بهما ، ثم قال :

— ماذا تنتظران مني ؟

قال الأب :

— إن ولدي يحسن العزف على البيان . وهو يرجو أن يؤتي
حظ الدخول في المعهد .

— ذلك مستحيل .

— ماذا تقول ؟

— أكرر لك القول : إنه مستحيل لأنه غريب الجنسية .

— ولكنك ستساعده لو سمعته !

ولم تفد المحاولات شيئاً في انتساب الصغير إلى المعهد . ولكن
شأنه نبه في باريس . حتى أصبحت باريس كلها تطلبه إلى
حفلاتها ونواديهما حتى غدا عبقرية من عبقرياتها ، وهو لما
يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ، فأعطاه ذلك قوة ونشاطاً .
والذي يطالع مذكراته الأولى يقرأ هذه السطور : « إن

نفسى تصعد وتحلق في النور . قلبي مفعم يطفح بالسعادة والقوة .
آه ! إننى أحيا ، إننى قوى فوق القوة . بعد قليل يرتل المصلون
نشيد البعث ، أما أنا فسأرتل من أعماق نفسى نشيد مبعث
قلبي ... إن قلبي يحيا من جديد . إن قلبي قوى ! »

— أبتاه ! لا أريد أن أكون كلباً عالماً . هاأناذا في الخامسة عشرة من عمري . هذه الحياة التي أحيها أجدها ثقيلة الأعباء على . إن غايتك كلها أن تجعل مني فناناً ، لا شيئاً صغيراً . لكن هذه النفثات من الكبرياء توحى إلى بالازدراء . إن ربي يدعوني . سأكرس له حياتي .

سمع الأب هذه الكلمات ، فتولاه زعر اليأس والحيرة . ماذا ؟ أليس هو الذي ضحى بكل شيء من أجل ولده ؟ من أجل مجد ليست ؟ والآآن يريد أن يخونه في منتصف الطريق ! — لا لا . يا ولدي ! ليس هذا بمجد منك !

ترامى الولد بين ذراعي أبيه ، وهو يجھش في البكاء ، ثم رفع وجهه الندي ، تلمع فيه عينان زرقاوان ، تعبران أصدق تعبير عن مدى تلك الوحشة التي انصبت عليه ، ولونته بألوان عميقة . — أبي ! إن كل هذه المظاهر التي أراها تزيدني تعباً ومللاً . والنقاد في حمتهم وغباوتهم كالذين يكتبون لهم . إنني لن أجد

الراحة الكاملة إلا في العودة إلى الله . وإلى الله وحده أطلب
هذا السلام الذى ضمن على^٢ به العالم .

بعد سنوات معدودة أخذ الأب يرى على ابنه إيجاءات خفية
تدل على مرض نفسى فيه . فالفتى كلما أيفع زاد إيغالا فى
هذه التأملات الخاطفة والرؤى التى تتركه - حين يستيقظ -
غارقاً فى العرق . فيقص^٢ فى الصباح ما رآه فى الليل ، من
قديس أراه طريق السماء مفروشاً بالأشواك والحجارة ، لكنه
طريق يفضى إلى راحة النفس وخلود النعيم ، ومن ملائكة
يرافقونه دون الناس . وكان إذا مر بكنيسة عاج عليها ، وصلى
فى محاريبها ، وانحنى على ترابها ، وقبل الصلبان فيها . وأسف
على أنه لم يكن فى العصر الذى كان فيه من الشهداء .
وأخذ الأب يوماً يجادل ولده بطريقة عقلية .

- ولدى ! حقاً إنك تتصل بالله . ولكنك تتصل أيضاً بالفن .

- لا ... ولكنى أريد أن أكون كاهناً .

- إنك كاهن الجمال ، وهذا فضل كبير من^٢ الله به عليك .

التأمل فى الجمال هو صلاة . ابتكار الآثار العالية مما يرفع
النفوس إلى الأعلى . إن مهنتك وقعت عليها يد الله مع المواهب

التي انطبعت فيك ، فليس من حقدك أن تهملها .
 أخفى ليست وجهه الذي طفح عليه التأثر بيديه . وتوالت منه
 شهقات مصحوبة بالبكاء . فعانق الأب ولده برفق .
 — لا لا ... تشجع ! إن الله هو الذي أراد أن تكون على
 الأرض لتقوم بالرسالة التي اصطفاك للقيام بها . إن ما تزعمه
 يأتيك من وحى ديني ما هو إلا ثورة وقلق . إنه وسواس شيطان .
 فهل هو يا ترى شيطان الكبر الذي يدفعك حين يحدثك عن
 التواضع ؟

حمد الفتى قليلا ، وكأن هذه الكلمات أصابت وترأ حساساً
 في قلبه .

— سأطيعك يا أبي مفتخراً بأني آلة من آلات الجمال
 الإلهي .

وُبعيد هذه الأزمة شرع ليست يؤلف ألحانه الجديدة .
 ولا يفكر إلا في أن يبتكر . وبدأ يشعر بأن لذة الإبداع
 تفوق لذة النقل .

ألا إن المؤلف المبدع يستيقظ في حنايا نفسه !

هنالك فتاة غسّالة أوتيت جمالا فاتناً، وعينين أشربتتا خضرة
 في زرقه ، إذا رأّت ليست على البيان مالت عليه مأخوذة
 بعزفه ، ووقف هو مبهوتاً بها . وفي يوم من أيام الحر اللاهب
 وقفت مائلة الرأس ، ذابله العين ، وهو ممعن في عزفه . صاحت
 به حين انتهى صيحة الشعور المخنوق :

— ما أشد وهج النور على العيون ! أرخ الستائر يا ليست ...
 واقترّب مني !

ترامى الاثنان في غفوة ذابله ، بعيدين عن كل مرصد ،
 ما راعهما إلا أن يُفتح الباب عليهما فجأة ، وهما متعانقان .
 ذلك هو الأب يُهيب :

— من الفتاة ؟

وراحت الفتاة تنسل على خوف واستحياء ، ثم التفت إلى
 ولده مغاضباً

— ألا تستحيي ؟

— اصفح عني يا أبي ! لقد كنت كالذاهل عن نفسي .

— أنت يا ولدي كائن شديد الإحساس . ولكنني أخشى

عليك المرأة ، إن النساء يقلقن حياتك ، ويعبثن بك .

انقطعت الفتاة عن زيارته ، ولكنه كان يراها في مواعيد خفية ، وإنه ليشعر بالإثم الذي يتولاه حين يروح يتبع هذه الطرق المعوجة في استجابة داعي اللذة . وطالما تنازعت في صدره عوامل التقوى الدفينة واللذة الأثيمة . وبينما هو يتفانى ضنى على صدر تلك الفتاة الجميلة تراه يتفانى توبة مسلماً إلى التقوى .

قال له أبوه :

— إنك متعب جداً يا ولدى ! إنك في حاجة إلى الراحة .
سندهب إلى شمال فرنسا ، حيث هواء البحر يكسبك الروح ،
ويرد عليك العافية .

وما هي إلا خطرة حتى رحلوا ، فبلغوا البحر . وسرعان ما همدت الحدة العصبية في نفس الصغير .

في إحدى الأماسي أحسّ الوالد رعشة برد تسرى في أعضائه ، فتدثر ، فانتهدت الرعشة إلى حمى عنيفة تؤلم بدنه كله . لم تغن الوسائل المختلفة شيئاً في تخفيف الحمى عنه وتسكين الألم . وفي ليلة ٢٧ آب (أغسطس) من عام ١٨٢٧ حين كان ليست يتأمل في الشعاع المرتجف على أديم الماء

سمع نقرات صماء تتوالى على النافذة .

تساءل الأب المريض :

— ماذا أسمع ؟

— لا تقلق يا أبى ! إن الغربان تضرب الزجاج .

وكان نقر مناقيرها ومخالبها لا يزال متواصلاً .

— أزحها يا ليست ! يا صغيرى !

فتح الولد النافذة ، وأخذ يضربها بجمع يده . وهو يرى على

نور النهار الباهت كيف تنطح الغربان زجاج النافذة .

— تعال يا ولدى ! اقترب منى ! إننى أحس أنك ستفقدنى .

— أبى !

— أشعر بذلك . استمع إلى ! أمك كن عاطفاً مشفقاً

عليها ! وأما أنت فتذكر ما قلته لك : خذ حذرك من النساء !

إنهن ربما أودين بك ، وقتلن عبقريتك ، وجعلن حياتك جحيماً .

ركع ليست على سرير أبيه المحتضر ، وتناول يده يقبلها .

وفى ذلك النهار نفسه ، بين رجاء الولد ويأسه ، وخوف الأب

وذهوله ، لفظ نفسه الأخير .

عاد ليست وحده إلى باريس ، يحمل في جنبه هذا الجرح
الدامى . وفيها لقي أمه العائدة من « قينا » ، فكان لقاؤهما مآتماً
جديداً ، ومبعثاً للألم . وتوالت عليهما الليالي مبطنة بالكآبة ،
متشحة بالسواد . ولكن هذا الحزن المستمر زاد في تضيق أسباب
العيش عليهما ، لأنهما ظلا بدون عائل ولا معين . فالتفتت
الأم إلى ابنها السادر في همه ، المنعزل في غرفة ألمه . ونهته
إلى الحرمان الذي يهدد حياتهما ، والفاقة التي تخيم عليهما .
فأدرك أن أمه تدعوه إلى أن ينفذ عنه هذا الدهول ، وتستحثه
على العمل من أجل الحياة . فوعدها بالسعادة القريبة ، والخروج
من هذا المأزق سريعاً ، فبدأ يعزف في النوادي العامة ، ويكسب
المال الذي يكفل لهما العيش . فكان مصابه بأبيه أول درس
له جعله يحسّ برجولته ، ويعوّل على نفسه برأ بها وبأمه الأيم .
عرضت عليه الكونتس « سان جريك » زوجة وزير التجارة
أن يزورها ، ويخص ابنها « كارولين » بدروس موسيقية . فأجابها

— إنك تستطيعين أن تثقي بي !
 ودخل بيتها ، فقالت له الكونتس :
 — إن صحتي متعبة ؛ ولذلك اضطر أن أقضي سحابة أيامي
 على هذا الكرسي الممدود . وستبقى أنت وكارولين معاً !
 — أكرر لك مؤكداً أنك تستطيعين الاعتماد على كاستاذ
 لابنتك .

ودخلت عليهما فتاة يتألق على وجهها نور الصبا ، وفي
 عينيها فتور ذابل .

— هذه هي تلميذتك يا ليست !
 تلقاها ليست بترحاب ، بينما راحت عينه تتأملها — في كرة
 واحدة — بجميع أجزائها .

برزت كارولين في الدرس الأول فتانة نضيرة الصبا ، واستوت
 على معزفها ، وغير بعيد عنها أستاذها الحديد . فكان الوجهان
 يكادان يتلامسان على أنامل البيان .

— اعزفي يا آنسة بتمهل ! تخيلي منظرًا في الطبيعة ! اعزفي
 هذا المقطع كأنك تسرحين على ضفاف بحيرة . تصوري مالك
 الحزين يرف فوقك . وبعيداً جداً يلوح قصر بخرائبه المطلة .

كانت كارولين تبسم لهؤلاء الملائكة الذين تتخيلهم حين
تعرف . وتلفت إلى ليست بوجه وردى ، وعينين غارقتين في
لون بنفسجي . فتراه بجسده المستقيم ، ووجهه الأنثوي كطفل
إلهي ، يتموج شعره الأشقر مسدلا على كتفيه .

— أو لم تحسى بتعب ؟

— بلى ، قليلا .

— لنسرح إذاً !

فيستريحان ، في حين يدخل عليهما من النافذة المجاورة
للبيستان عبق الأزهار .

— ألا تريدان الذهاب إلى مشهد تمثيلي ؟

— لا ... إلا المشاهد الإيطالية ! لأن غيرها لا أفهم لغة

أصحابها .

— ألا تحلو لك المطالعة في البيت ؟

— نعم ، وبخاصة آثار « برناردين دي سانت پيار » صاحب

« بول وفرجينى » ، التى ترفع النفس . وعبقرية النصرانية

« لشاتوبريان » . آه ما أجمل هذا كله !

.....

قالت كارولين ليست يوماً

— هنا خزانة ؛ هل تراها ؟ وراء هذا الستر الحريري كتب ،
لا تجد القفل عليها دائماً ، ولكنها ممنوعة على . وما أشد خوفاً
واضطراباً حين أهم بتناولها .
— وأخيراً ؟

— تناولت كتاباً للافونتين . لا شعره القصصى الحكيم .
قرأت قليلاً ، ولكنى سرعان ما أخفيته حين سمعت حركة
في المنزل .

— وما عسى أوحى إليك هذه القراءة ؟

— آه ! إنها ولدت في الرغبة ، وتمنيت لو قدرت أن أسبح
في هذه المدن التي وصفها لافونتين في أطراف البلاد . من
نابولي إلى فيينا ، إلى التطواف في الجندول تحت أشعة القمر
الناعسة ، والتجوال مع البدو في الصحراء على خطى الجمال في
قلب القافلة ، أو إلى استرواح عبير الشرق الزكي ! وتمنيت
لو يقدر لي أن أحيا في عصر أهل القصور الفخمة . إن ذلك
لجميل ، وجميل جداً .

كانت كارولين تتكلم بلهفة وعاطفة . وكانت تعتبر هذه

الاعترافات ضرباً من الإثم يلحق بها ، حتى وارت وجهها
بيديها مراراً ، لتمنع عينها أن تقع على عين ليست الذى أحس
بقلقها النفسى ، وشوقها المكبوت المشوف إلى مجالى الحياة
الطلقة .

— لا ... لا . إن يد الله الكائن فى هذه الأكون كلها
تقودك على هذه الطرق من الجمال والشعر .
— قد يكون ذلك ! ولكن الزواج ، وأن أكون أمّاً لأولاد
أريهم تربية مسيحية ، هو كل مثلى فى هذه الحياة . ولكنى ،
مع هذا ، أجد أحلامى بعيدة .
بمثل هذه الأحاديث ، وهذه الأحلام المضطربة كانت دروس
الموسيقى تنقضى ...

كان ليست يوم يغدو إلى لقاء كارولين يُعنى بزيه ، ويرتب
حالته ، كأنما يضمنى على جماله جمالا ، وعلى فتنته فتنة . وأتى
لكارولين أن تقاوم هذا الفاتك العرييد ! ... وكان يجلس
للعزف ، فينتقى لتلميذته القطع المثيرة التى تعصف بالعاطفة إذا
لمستها ، والنفس إذا أحستها . ولا يدرى إلا الله ما تركه من
أثر وشبوب فى نفوس الغانيات . فكانت كارولين تعزف حيناً ،

وحيثما تصغى إلى أنامل فتاها المتموجة ، فتموج عواطفها في صدرها ، ولا تدري كيف تتقى مقاتلها ! ومن كان مثل ليست رهافة في الذوق ، ولطافة في التعبير ، لا يُعيبه أن يمزج اليأس بالرجاء ، والهناء بالشقاء ، حتى يكون من هذا كله لحنٌ يستبد بالنفس . وكان يعتمد أحياناً إلى أن يدعوها للقراءة دفعاً للسامة . ولكن ما تقرأه لا يزيد لها إلا تنهداً .

في مساء ما قدم ليست لتلميذته خاتماً نقش عليه شعاراً له ، ففقدت صوابها من التأثر ، فأحنت رأسها ، وتمتمت له بكلمات رقيقة : « هل تشعر يا فتى بأننى أحبك ؟ » فهصر قامتها . وشدها شدةً عنيفاً ، وهى مستسلمة بين ذراعيه ، صفراء ، شاحبة اللون ، تقول له :

— إنك آلمتني !

فطرحها على مقعد عريض ، وأخذ يناجيها بلغة رقيقة ، ضارحاً متوسلاً ، حتى ابتسمت ، وصفححت .

— إنك تحبينى يا كارولين ! إننى أعرف ذلك ، وأراه ، وأحسه بكل قلبى . إنك تحبينى . ولكن أولئك الأغبياء يريدون أن يقصوك عنى : عن الرجل الوحيد الذى يفهمك .

يا لله لفتاة بائسة ! اذهبي واخضعي لشريعهم القاسية ! وامنحي
 نفسك للزوج الذي فرضوه عليك ! واقتلي معه أيامك ولياليك ،
 وعاندي إرادتك ، واخدعي نفسك باللفظ الجامد ، والكذب
 المموه . ولكنك لن تسلمي إليهم نفسك ، لأن نفسك لي
 وحدي ... إنني سأملكها برغم الناس ، وبرغم القدر ، وبرغم
 نفسك ذاتها . نعم ، إنني لن أراك ، ولكنك ستكوينين لي إلى
 الأبد . والآن وداعاً ...

وبينا راحت الساعة تعلن — بدقاتها الاثنتي عشرة — نصف
 الليل ، عاد والد كارولين من عمله ، فراه أن يرى النور ساطعاً
 في حجرة ابنته ، فدفق الباب ، ووجدهما ...
 — يا سيد ليست ! أظن أن عزف الموسيقى أضلك عن عزف
 الساعة .

انتفض ليست من غفوته معتذراً . وحين هم بالانصراف التفت
 الأب إلى ابنته مؤنباً :
 — ادخلي يا كارولين ! واعلمي أنني قررت أن يكون الكونت
 « أرتيجو » زوجك .

والتفت إلى الأستاذ الذي كان يتعثر في مشيته :

— أشكرك على دروسك . وغداً تأتيك تنمة حسابك !
 وكانت هذه الليلة هي الموعد الأخير ...
 حقاً لقد كانت هذه النهاية آخر ما يتصوره ليست . لأنها
 كانت ضربة لآماله ، ونكسة لحياته الفنية . فعاوده الوسواس
 الدينى الذى كان يغريه فى حدائته . فراح يقضى معظم أيامه
 فى بيوت الله باكياً ، متقرباً من الله ، يريد أن يضحى بفنه
 من أجل مرضاته . وقد هم مراراً بأن يعزف عن الموسيقى لولا
 ما يتمثل له من وعده لأبيه الراحل . وقليلًا قليلًا ترك الكنيسة ،
 وارتد إلى بيته ليلقى أمه التى أضناها الانتظار . لكنه ظل ممتنعاً
 عن كسب معيشته بعزفه ، منفقاً ما استطاع إمساكه من
 قبل . فكان من جراء ذلك أن غلب عليه نوع من التشاؤم
 والازورار عن الحياة ، مما جعل الأم تضاعف جهودها لاستنقاذ
 وليدها من حالته . فكان يأبى الطعام ، ويعزف عن الشراب ،
 مجترئاً بالتدخين المتواصل الذى عمل على تخدير أعصابه . بل
 كان يأبى أن يزور أحداً ، أو أن يستزيه أحد . فزادته هذه
 العزلة استيحاءاً ، وزادت أمه يأساً منه وبكاء عليه .
 إلى هذا المصير المظلم تمشى هذه العبقرية المضيئة ؟

وأخيراً ، حين أعياه النسيان عمد إلى المطالعة ، مطالعة أى كتاب كان ، وأى أديب كان . وكان أكثر ما يميل إليه قصة « رينى » لشاتوبريان ، حتى حمل نفسه على زيارة هذا الأديب الكبير إعجاباً به . فما عملت هذه الزيارة إلا على إيقاد العاطفة فى نفسه . وفى هذه المهلة فتح داره ليعلم الطلاب كدأبه . فما إن ذاع ذلك فى باريس حتى توالى عليه الطلبات ، وممر عليه زمن كان يشكو فيه الإرهاق والتعب . كل ذلك إنما يتحمله ليقوم بشأن أمه التى لا تعرف لها عائلاً سواه . ولولا هذا الواجب لشيع الدنيا ، وقدّم فنه قرباناً للسلام الإلهى غير أسف عليه .

* * *

قد توقظ بعض الحوادث النفس ، وتفتح لها اتجاهاً جديداً
 لا تألفه . من ذلك حوادث أيام المجد في الجمهورية الفرنسية
 عام ١٨٣٠ . حيث اختلط لمع الحناجر بدخان البارود . كان
 لهذا اليوم أثر نفسى غريب أثار وعى ليست حيث شاهد
 الثورة تطغى على النفوس لقلب نظم المجتمع الذى كان يشكو
 منه الشعب الباريسى . وفجأة تلاشى النظام ، وامتدت الثورة ،
 وعلا هتاف البؤساء الذين مشوا بمظاهرات عنيفة ، يحطمون
 أقفال الحوانيت ، ويكسرون مشاعل الشوارع . وهم يحملون
 أعلام الثورة بيد ، والحجارة بيد يرشقونها هنا وهناك . فشقى
 هذا المشهد نفس ليست ، وعصف بها هذا الروح
 العنيف الذى لم يألفه ، كأنه أعاد إلى نفسه الإيمان بمجتمع
 أطهر وأبقى ، حتى حملة ذلك إلى تأليف « سمفونيته الثورية »
 التى أهداها إلى ثوار ذلك اليوم ، يعبر فيها عن أحلامه الإنسانية .
 ويخلط فيها بين اللين والعنف ، واليأس والأمل . إنه يفكر فى

أن الزمان الآتى ينبغي له أن يحقق السعادة لكل الناس ، إن
 الإنسان صالح بطبيعته ، ولذلك يجب أن يحيا سعيداً ، وإن
 له الحق فى أن يكون سعيداً . إن المساواة هى شريعة الطبيعة
 الطبيعية ، لكنها شريعة خنقها الظلم . ولكن ينبغي إحياء هذه
 الشريعة بأى ثمن كان .

تلك هى بعض الأحلام السامية التى كانت تساور نفس
 ليست الشاب . وللشباب أحلام مثالية ما كان أسماها !
 لولا أنها لا تثبت للواقع والحياة ! ولكنها تبقى الحافز الأكبر
 لنفوس العظماء حين يثورون على واقعهم ، ويتوقون إلى عالم
 جديد يبنونه من أحلامهم .

اندمل جرح ليست بين جراح الحب ، وتناسى الصدمة
 التى كادت تزعزع كيانه ، ولكن جرح الحب لا يندمل
 إلا ليحل محله جرح آخر . وجراحات القلوب - فى الحب -
 متتالية .

بينما كان ليست يعطى أحد طلابه درساً فى الموسيقى وقع
 طرفه على أم هذا الطالب وهى « أديل أو الكونتس دى
 لاپروناريد » . فتخيل أنها امرأة سقطت عليه من أحد

الكواكب ، كانت هذه المرأة في الثلاثين من عمرها ، فيها شوق خاص إلى الفنون والموسيقى . وكان زوجها الكهل بعيداً عن هذا التذوق . فهو يبتعد جهده عن الحفلات الموسيقية التي كانت تتعدها بين الحين والحين ، لأنه أصم حرمة الطبيعة هذه النعمة . فوجد بذلك ليست منفذاً إلى قلب هذه المرأة التي وجدت في فتاها الموسيقى ما يلائم رغبتها . فهي الآن ترافق هذا الموسيقى ، وتخرج معه إلى النوادي الفنية دون أن ترى في ذلك إثماً ولا حرجاً ، حيث ترى مصورين ونحاتين يهيمون وراء مثلهم العليا في الجمال ، وشعراء مسدلين شعورهم ينظرون إلى العالم نظرة الناغم على الحياة التي غاضت ألوانها البهيجة . وقد وضعوا وراء هذه المشاهد هيكلًا عظيمًا مسجى يشرف على هذه الحلقات ، فإذا كشف عنه السدل تعالى صياح الذعر ، والتوت الرعوس على الرعوس ، وتناطحت الصدور بالصدور ، وسرت في صدر الحبيبة رعدة ، فراحت تستحث ليست على الخروج من الحلقة ، وعلى وجهها الخوف المشوب باللذة والإغراء .

* * *

لقد كاون جود هذه المرأة في حياة ليست حادثاً حول حياته

كلها ، من الهدوء إلى الصخب ، من الانكماش إلى الظهور .
وأصبح لا ينقصه ما يرتب حياته على هذا النسق الجديد .
فبيته تبدل بيتاً فخماً ، وعلى الجدران تعلقت صور رائعة .
أما أم ليست فقد خشيت على ابنها هذا الاسترسال في
الترف والإسراف . وأحست أن علاقته بهذه المرأة إنما هي علاقة
عابرة لا تستبد بقلبه . ففكرت في أن يصبح ابنها رجلاً ينعم
بزوجة وبنين ، بل ذهبت إلى أبعد من التخيل في هذه الفكرة ،
فحدثت ابنها عنها ، فلم يُبد اعتراضاً ولا إباء . ولكنها حين
أصرت ردها رداً لطيفاً ، لأن موعد ذلك لماً يحن بعد . وأخذ
ليست يفتش في الحياة عن مواضيع ذات أحاسيس جديدة .
وأخذ يتساءل : ألا ينبغي للفنان أن ينعق من النوع الإنساني ؟
وأية عناصر من الفرح العالى يمكن أن تكون في الانحطاط
والابتدال ؟ لقد عاشر بيوت الأفراح ليدرس الميول على الوجوه
الشاحصة في الموائد الخضراء ، وزار السجون ليلاحظ ملامح
الذين نفوا من الحياة في المجتمع ، ورافق الأطباء الذين يعالجون
المجانين ، والمعدنين الذين يعيشون ذاهلين عن وعيهم . وانطلق
بين المحتضرين الذين تلمع على عيونهم آخر ومضة من ومضات

الحياة . وارتعش للأنين ، واهتز للحنين .

وهو ، في كل هذا ، متصل كل الاتصال بمحبوبته التي ازدادت به وجداً ، وازداد بها تعلقاً حتى أصبحا حديث كل إنسان . وما هو « إلا عاصفة الهوى تسوقهما وتتركهما مختلفين فيها » . هي عاصفة شديدة تلويهما في دوارة من الشقاء والفرح الذي لا يحسه الناس . هذه العاصفة ، سعداء من يذهبون فريستها ، وسعداء من سمعوا حسيستها ، وسعداء من شعروا بخفيف أجنحتها المصطفقة فوق رؤوسهم .

وفي باريس اتصل ليست بصداقة وثيقة مع الموسيقيين : شوپان ، وبرليوز . فاجتمع على سعيد واحد ، پولونيا ، وفرنسا ، والمجر . أما برليوز فقد كان رجلاً ذا وجه متقلص ، تحت شعر مسدك بذوائب . وحياته حياة عصبية عاصفة ، لا تستقر به حال حتى تثور به حال . وإذا كانت صداقة برليوز جعلت ليست يوغل في الدهول العاطفي فإن صداقته لشوپان فتحت له الأجواء الموسيقية الشرقية التي تعتمد على إثارة المشاعر . وقد ترك لنا ليست كتاباً وصف فيه صورة هذا الموسيقي البولوني ، العذب الابتسامة ، الجامع بخياله وروحه ،

الناحل بجسده ، الشاحب بلونه . واعترف له بموهبة خاصة
تركت صفحة خاصة في تاريخ الموسيقى .

ويذكر ليست فيما يذكر ليلة في الأوبرا أحيائها الموسيقى
الإيطالي « پاجاتيني » الذي فتن باريس بموسيقاه . فذهب
تلك الليلة ، وراح يسمع . وكان يخيل إليه كأن لحناً ينبثق من
مملكة الظلام . وكان پاجاتيني يظهر في مكانه بعينين مركزيتين
ثابتين كعيني طائر انقض على فريسته ، وأنفه كالمنقار المنتصب
وفمه كهوة فاغرة بدون شفيتين . أخذ يعزف عزفاً لم تسمعه أذن
إلا انحدرت إليه بإصغاء ، ولا نفس إلا تولاهما حال من
الفناء ، من عزف قائم كأنه رقص الجماجم ، إلى عزف يستنطق
أبطال الأساطير النائمة . يا له من عازف يهتر جسداً وروحاً !
ويا لها من يد تصعد وتهوى كأنها لا تصعد ولا تهوى !

لاحظ ليست هذه الحالات كلها ، وجدير بمثل ليست أن
يلاحظها ، لأن عين الفنان تدرك عروج الفنان . حتى إذا
خرج من هذه الحفلة خرج مخموراً مسحوراً ، لا يدرى في
أى عالم يطير !

بلغ ليست الحادية والعشرين من عمره ، ولا يزال يزداد
تعلقاً بفتاته . وفي عام ١٨٣٢ ، في منتهى الحريف ، عرضت
عليه أن يرافقها لقضاء شهر عند عمته التي تسكن في أعالي
جبال الألب ، حيث يغريه مشهد الجبال المكسوة ثلجاً ،
والأشجار التي أحنت العواصف هامها . وكان من الطبيعي
أن تروقه هذه الدعوة التي تشرف به على أكوان جديدة .
فاستشار أمه ، فشجعته ، وطلبت إليه أن يبقى هناك ما يستطيع
طمعاً منها في أن تبعده عن هذا الجو الذي يقلقه ، دون
أن تدرك باطن الدعوة .

في شهر أيلول (سبتمبر) كان ركبها يتهادى على تلك
المراقى الوعرة ، حتى بلغ القصر الوحشي الموعود ، فما كان أشد
اغتباط ليست بهذه الطبيعة المتمردة ، المتردية رداء القوة والحلال .
فكان الحبيبان يقضيان أيامهما ، متوغلين في هذا المشهد
المترامي ، أو جالسين يرشفتان ، أو راقصين يعزفان . وحين

هَمَّا بالعودة أخذ الثلج ينهمر بغزارة حتى سد الذروب ، وقطع المسالك ، واستحال على العابر العبور . فهل يجازفان بحياتهما في الطريق المكفنة بالثلج ، أم ينتظران عودة الربيع ؟ وما أبعد الربيع !

لقد كان ليست على شيء من القلق لهذه المفاجأة ، أما الفتاة فلم يزد لها ذلك إلا اغتباطاً ، لأنها ستقضى شتاء دافئاً بالقرب من حبيبها . وأخيراً أذعن ليست للقدر المكتوب . فكانت الأيام الأولى عذبة ، مجنحة الأحلام ، حلوة الواقع . ولكن متى كان السرور شيئاً لا يتأثر بالزمن ؟ ومتى خلص السرور من السأم الذي يقتله ؟ إن موجة من السأم أخذت تطغى على قلب ليست . وإن شعوراً من الانقباض جعله يتبرم بالبيت ، وبهذه الحياة الحامدة .

مضت الأيام سراعاً ، وأخذ الربيع تطل تباشيره ، والثلوج تتكشف رويداً رويداً عن المنافذ المسدودة . وما إن أمكن المرور حتى هجر البيت ، وحطم قلب فتاته ، وطوى حبيبها ، وأفلت كما يفلت العصفور من القفص ، يطلب الأجواء الفسيحة ، والحرية المكبوتة .

لقد كان في باريس آفاق خاصة للفنانين ، تجمعهم على اختلاف المهنة والطريقة . وهي شبيهة بالندوات المؤتلفة . ترى فيها الرسام والنحات والموسيقي والشاعر . يجتمعون ويخوضون في أحاديث شتى ، فيكون لهم من ذلك آفاق للابتكار والعرض . ولعمري لا ينفع الفنون شيء كمثل هذه الندوات .

في إحدى الليالي التي عزف فيها ليست على البيان إحدى معزوفاته الساحرة تصدت له امرأة من علية القوم هي « الكونتس داجولت » ودعته إلى زيارتها في بيتها . وهي امرأة متزوجة من زوج ثري أرستقراطي كان يكبرها بخمسة وعشرين عاماً ، على ما اتصفا به من مزاج مختلف ، وطموح متباين . هو رجل سياسة وجد ورياضة ، وهي امرأة ذوق وفن وموسيقى .

جاءها ليست في الموعد المضروب . فرحبت به لا ترحيباً برجل زائر عابر ، وإنما برجل فنان له شخصيته المستقلة . واجتمعت عليه فتيات مولعات بالفن . فكان ليست غاية موضوعهن . وكن يأملن أن يعزف لهن . لكنه لبث صامتاً في موضعه كأنه لم يكن لينتظر أن يدعى إلى مجتمع ، بعد أن كانت الدعوة إليها

وحدها . وكأن الكونتس أدركت ما غشيه من وجوم وحيرة ،
فرجته حين ودعته أن يأتيها غداً ، لأنها ستكون وحدها .
وهكذا كان ... كانت تنتظره في البهو الموسيقى الذي أسدلت
عليه ستائر رقيقة تجعله بين المنير والمظلم . وعلى جدرانها وأرائكه
تماثيل فنية ، وتزاويق تثير الروح الفنية . جلس ليست بوجهه
العالي ، وعنقه المتطاولة ذى الخطوط المتناسقة ، وحركاته المتناسبة ،
والبساطة المقرونة إلى الرفعة والزهو . وجلست أمامه تحدثه عن
الجو الثقيل الذي تحيا فيه ، حتى لكأن وجودها فراغ لا يملؤه
شيء . فاستغرب ليست هذه الشكوى من محدثته ، وهي التي
تستطيع أن تشتري كل ملذة ... ولكنها كانت ملذات رتيبة
لا تتبدل . ومتى عكست الحياة رتيبة النغمات؟ إنها تريد المسرح
والرحلات والنوادي ، إنها تريد أن تتذوق الحياة بكل ما فيها
من رغائب . إن لها أولاداً تتسلى بهم ، وإن لها نادياً يضم
رجالاً مختلفين . ولكن ما أكثر ما يكون هؤلاء الرجال -
بأحاديثهم الفارغة - سبباً للملالة ! إذاً ، ماذا تريد من الحياة؟
إنها تريد فناً تربط مصيرها بمجده . ولكن كيف يأتي هذا
المصير بعد أن عين لها القدر موضعها في الحياة؟ لتقبل إذاً

حظها المكتوب ! ولتتحمل مصيرها المفروض ! ولكن هل يمنع هذا المصير أن تربطها ، بفنان مثل ليست ، علائق الفن والصدافة ؟ ليكن ليست ذلك الصديق الفنان الذى يزورها ويخفف عنها بعض ما تشعر به من سأم ! وليكن ليست ذلك الموسيقى الذى يعزف لها المقاطيع الخالدة شأن غيره من عباقرة الموسيقين . هل يضيره هذا شيئاً ؟

جلس إلى البيان ، وقد تملكه شعور غريب سام لم يعهده من قبل ، ولما يعهده من بعد . وراح يعزف مقطوعة يزدحم فيها عالم مكتظ بأناسه وأزيائه وعاداته ومدنه الغربية . وعلى البيان قد أسندت الكونتس مرفقها مسترسلة إلى تلك الأحلام التى تهدهدها حيناً ، وتعصف بها حيناً . وهى تتأمل خلال ذلك وجه العازف المشرق الأنيس ، وما يحمل من تعابير غامضة واضحة ، وعينيه الزرقاوين اللتين تسامتا عن حقارة العالم ، واتجهتا إلى عالم الجمال . وقد أدركت أنها لم تحس يوماً مثل ما عاودها اليوم . ولم تعرف مثل هذا الاضطراب فى إحساسها الحى . وقد كانت مرهفة الذوق للموسيقى ، تدرك ما تصور ألحانها ، وما تنبئ أصواتها . ولذلك كانت هائمة فى السماع

وفي التذوق ، حتى إذا ما انتهى كانت كتمثال جامد صامت
يريد أن يتكلم ، وليس بقادر على الكلام . وكان هو راسياً
في مكانه يتأمل سمات هذا التمثال العجيب .

لقد ظلت الشفاه صامته ، وأما العيون فلم تكف عن الكلام !
هذا حب جديد نما على أطلال الحب الغابر . لكنه نما
عنيفاً . وصاحبه ظروف تزيد من قوته وعنفه على القلبين .
فهما ، إذا تجاوزا شرباً كأس الهوى دهاقاً ، وإذا افترقا تركا
لليراع يعبر عن هذا الهوى المستعر . ولذلك كثرت الرسائل
والبطاقات بين الحببيين . وكلها مطبوع بطابع الحب العاطفي .
ها هي ذى تكتب إليه حين كانت بعيدة عن باريس :
« إنك - هنا - دائماً ! أراك في كل مشاهد حياتي أمامي .
حين تمشطني الماشطة أرى جبينى لأنك تحبه . أذكرك حين
أجلس على جذع شجرة ، أو على مقعد حجري ، أتحدث
مع القرويين ، وأتمتع بأحاديثهم الساذجة ، لأنى أتمثل سرورك
حين كنت تسمعهم » .

وليست لم يكن بأقل منها شغفاً . فهو يكتب إليها حين
أبت إلى باريس في الخريف ، وقد أقعده المرض عن لقاءها :

« ليس لى سواك يعطينى الحياة . ما أخيب أملى إذ لا أراك
الآن . اكتبى إلىّ ! حدثينى عن أمس ! عن تلك الليلة !
كيف كانت غدائك ؟ هل رقصت ؟ أين غدوت ؟ حدثينى
عن كل هذا ! »

فتجيبه :

— « إننى وحدى ، وحدى . لا يرافقتى إلا فكرة كبيرة ،
هذه الفكرة هى ... أنت . أنت الذى أراه عظيماً أميناً ،
أتعزى به عن أيامى السابقة . لا أستطيع أن أقول لك شيئاً لم تفكر
فيه من قبل ... إنك تعرف أننى أحبك من أعماق نفسى . »
وكان من أثر هذا الحب العميق أن قص ليست على فتاته
أنباء حبه الأول ، حبه لكارولين . وعلاقته مع أديل .
إنه لم يكن إلا طفلاً غراً مع الأولى ، وفى جباناً بائساً مع
الثانية . أما معها ، فإنه يشعر بأنه رجل كامل . وإنه ليعبر
عن حبه الأخير بكتابه هذا :

« دعينى أذرف الدمع على ركبتيك ! إن رأسى يكاد يشتعل .
ما أحوجنى إلى يدك تمر على جبينى ، وتغوص فى شعرى !
إننى لا أسمع . ولا أحس ، ولا أرى الأشجار التى تخفق ،

ولا الناس الذين يعبرون ويموجون ، ولا السماء ... السماء نفسها !
 إنها صافية بدون غيوم ! يا للسخرية ! ويا لليأس ، ويا للغموض !
 إننا لن نحيا أبداً ، ولا نعرف ما هو الموت ؟ لنسكت إذاً !
 وليعبد أحدنا الآخر ! ولنصمت بعد ذلك أيضاً ! »

سمعت الكونتس أن في باريس عرافة تستطلع مخبات
 المستقبل ، وأن نبوءاتها صادقة . وما أكثر ما تميل المرأة إلى
 استنطاق الغيب ، واستجلاء المجهول ، ولا سيما من كانت على
 قلق في حياتها وفي حبها . فانطلقت الكونتس إلى هذه العرافة ،
 وهي فريسة هذا الاضطراب الذي يساورها ، تؤمل أن ترى
 من يهديها إلى الطريق الذي ينبغي لها أن تسلكه .

ها هي ذي العرافة في زاوية مهجورة ، قد دبت إليها الكهولة ،
 على حجرها قطعة سوداء تغط في النوم . طلبت الكونتس إليها
 أن تستخرج لها فألها ...

— إن تبديلاً كبيراً سيدخل على حياتك في مدى عامين ،
 أو ثلاثة أعوام . وما يتراعى لك في هذه الساعة مستحيلاً
 سيصير ممكناً . ستبدلين وضع حياتك . وتغيرين اسمك نفسه .
 أما اسمك الجديد فسيكون عظيماً ذائعاً ، لا في فرنسا وحدها ،

بل في أوربا جميعها . ستغادرين طويلاً بلدك ، وستكون إيطاليا
 بلداً لك ثانياً ، حيث تعيشين فيها محبوبة مكرمة ، وستحبين
 رجلاً له مقامه في العالم ، ولاسمة ضجة بعيدة في الأقطار . «
 هذه نبوءة أذيعت في ٢٣ حزيران (يونية) عام ١٨٣٤ .
 أما ليست التي فحين غادرته فتاته إلى باريس في منتهى
 صيف ١٨٣٤ عاوده ذلك الحنين القديم إلى العبادة ، والانقطاع
 إلى الله . ماذا ينتظر منها ؟ لماذا يزيد قلعه يوماً بعد يوم ؟
 لماذا يحطم نفسه بهذه الآمال الكاذبة ؟ لمن يفتح قلبه ؟ ويدلى
 بما يساور ضميره ؟

فكر سريعاً في صديقه الراهب « لاميني » ذى القلب
 الطيب ، والروح المستقيم . كان هذا الراهب يسكن في
 « بريتانيا » في قصر اختاره بين الصخور الوعرة ، والأشجار
 الوحشية . فلما سمع شكوى ليست دعاه إلى بيته ، لعله يجد
 عنده الشفاء .

قصده ليست في بيته ، وانطرح يبكي بين ذراعيه . وفجأة
 زابته أهواؤه العابثة كما تتجرد الشجرة من أوراقها الصفراء .
 — نعم ، يا ولدى ! من أين مأتى اضطرابك ؟ أى قلق

يملك عليك نفسك؟ تكلم ! حرر قلبك ! إن الألم الخفي
 - حين تعترف به - يتلاشى كقطرة الطل تحت وهج الشمس .
 تكلم !

اعترف ليست بما كان في حياته كلها دون أن يجحد شيئاً .
 وأدرك الراهب أن اضطراب ليست إنما مرده إلى اللذائذ المادية .
 وهو يدرك أن الانصراف إلى عالم الفن والجمال إنما هو عبادة
 كاملة . لكن هذه العبادة تحتاج إلى قلب نقي ، ومخيلة
 متجردة صافية .

- يا ولدي ! يمكنك أن تبقى هنا ما أردت . فاقطع اتصالك
 بالجيل ! وطمئن أمك عن صحتك ! ولكن بلغ طلابك أنك
 محمول على الراحة ، واقطع وعدك بالعزف ! إنك ستضيع
 بعض المال ولكن لا بأس ...
 - لا يضيرني ضياعه شيئاً .

- ولقاء ذلك ستكسب كثيراً لا يقدر بثمن ، وضميراً
 مطمئناً .

- لك على عهد الله بذلك .

أقام ليست في هذا الكهف عدة أسابيع قضاهها مع الراهب

في حله وترحاله ، حديثهما وقف على الله والآلام البشرية .
 في إحدى الليالي ، بعد العشاء ، لبث ليست في حجرتة
 مسهداً لا يطيعه الكرى ، مفكراً في فتاته البعيدة . فلم يقدر
 إلا على أن يطيع نداء نفسه . فكتب إليها يحدثها بما هو فيه ،
 عن حياته الحاضرة ، ونزهاته المتعددة ، وأحاديثه مع الراهب .
 ولكنه مع ذلك يودعها ، لأنه يحبها كما تحبه .

لم يطل به المقام عند الراهب ، فعاد إلى باريس ، وقد
 أخذ على نفسه ميثاقاً ألا يراها . ولكنه كتب إلى صديق يصور
 له ما يكابده .

« حتى هنا ... أجد قلبي محطماً ، ورأسي مثقلاً بالاضطراب
 إن الاجتماع مع الناس يتعبني ، والوحدة تضجرتني . أيام هذا
 الشهر كلها كانت شمساً وصفاء وجمالاً . ولكني - برغم ذلك -
 لا أراني ضاحكاً مع الشمس . إلهي ! إننا نبتهل إليك من
 أعماق شقائنا ، ونضرع لك كما يضرع العبد الموجه تحت
 سياط سيده ، أو كالمسيح على صليبه يهتف : أبي ! أبي !
 لماذا تركتني ؟ »

وكتب إلى فتاته :

« إننى لأدرك جيداً أن لا شىء يقدر أن يملأ فراغ نفسى .
 مارية ! مارية ! ضمى يدك على قلبى ! وقلبك على صدرى !
 إننى عار ... إننى أرتعش برداً ، فاكسينى لباس حبك !
 دعينى أشتعل ! أنقذينى - عمر لحظة - من شقاء الزمن كله !
 ألا ابغى نفسى خلقاً جديداً ! »

وهكذا عاد ليست إلى مألوف حياته الأولى ، وعاد إلى
 دروسه التى كان يعطيها ، ومقطوعاته التى يعزفها . أما الحب فقد
 بدأ يتنفس ويحيا ... وكيف ينسى فتاته التى أخذ يناجياها
 بقوله :

«ألا صفحاً عنى ! واسمحي لى بأن أباركك كما أبارك إلهى .
 ألا تحسين حقاً أنى أحيا داخل نفسك ، وفى لحمك وعظمك ؟»

* * *

أرادت مارية أن تشهد حفلة ليلية من حفلات عزفه الدينى
 فى كنيسة « نوتردام » وكان حراماً أن تشهدها امرأة فى موهن
 من الليل . لكنه أدخلها بثوب رجل . وعند انتهاء العزف لم
 يقصدا إلا بيت ليست . وقد كان يسرها أن تجد نفسها وجهاً
 لوجه أمام بيان ليست وكتبه فى الغرفة التى يؤلف فيها موسيقاه !

إنها لم تستطع أن ترحل - برغم تأخرها - لأن الجو الذي كانت فيه كان يجذبها إلى البقاء بجانبه . فراحت تردد حيناً بعض الكلمات بنغمة رقيقة ، وحيناً تمد أناملها الرخصة إلى شعر حبيبها عابثة به . وهما يتحدثان آنأ عن دانتى ، وعن شكسبير ، وعن بيرون ، وآنأ يتحدثان عن حالهما وآمالهما .
 - إنك هبطت على كمالك الرحمة لتضيئي عزلتى الجحافة !
 ليتنى أقدر أن أحيا معك بعيداً عن هذه المجتمعات المزدهمة ، منفلتاً من هذه القيود !

نهضت مارية إلى النافذة حيث الفجر يوشح السماء بنوره ، ثم انشنت ، وعيناها مخضلتان بالدمع ، وجلست إزاءه ...
 ورويداً رويداً أخذت تكشف عن أسرار قلبها . إنها تتألم برغم أولادها ، وبرغم حياتها المترفة ومنزلتها العالية . وجدير بليست أن يهزه هذا الاعتراف الذى يدينه من حلمه الذهبى .
 - إذا أدركت يوماً ما أتمناه فإننى سأحبك كما تُحِبُّ امرأة لم تمسها شفتان ! وستكونين طاهرة نقية كالنسيم الذى يهب على ذرى الجبال الشاهقة . ويكفى أن يدنو منى فمك هذا حتى أهتر كالشجرة التى تعبت بها الريح ... »

هكذا كانت نجوى ليست تتوالى بأسلوب وجداني رقيق
عصف بنفسها . وقد دقت الساعة الخامسة ، ولم يبق إلا
الانصراف .

* * *

وأخيراً ، ما ينبغي أن يكون سيكون ! فإن هذين الكائنين
المتقاربين أخذوا يشعران بأن كليهما مرتبط بأخيه . بل قد نال
حب هذه الفتاة من قلب ليست ما لم ينل منه حب سابق
ولا لاحق . فإن هذه الفتاة الناضجة استطاعت أن تبعده عن
ماضيه ، وتذهله عن آتیه . كما أن ليست استطاعت بلغته
الموسيقية العاطفية أن يصرفها عن حياتها غير أسفة على بيتها
الذي راحت تهدمه بيديها ، ولا حافلة بالسمة التي ستصم
بها حياتها .

وإنترکه الآن يصف لواعج نفسه بنفسه :

« إن قلبي يفيض عاطفة وسعادة . إنني لا أدري أية غبطة
سماوية ولذة عميقة تغمر وجودي كله ! ولكن يخيل إليّ أنني
لم أذق الحب من قبل . ألا قل لي من أي عالم خفي نزلت
على هذه الرعشة الإلهية من الحب ؟ إنها لن تكون إلا منك

أيتها الشقيقة ! أيها الملاك ! أيتها المرأة ! يا مارية ! لك الشناء
يا إلهي على ما أوليت ، وما أعطيت ! ... »
ولترك مارية نفسها تعبر عن عاطفتها :

« آه يا ليست ! لنمحُ الماضي ، ولننس ، ولنصفح !
ليكن كلانا لرفيقه ! في ذلك اليوم سنفر معاً بعيدين عن العالم .
وسنحيا ، ونتحاب ... وسنموت وحدنا ! »

وفي اليوم الذي تعاهدا فيه على الفرار أقبلت متنكرة ،
ترافقها أمة سوداء ، كانت تدعى بزهرة الثلج . فركبوا القطار .
وما هي إلا نفخة واحدة حتى كان القطار يتواثب على قضبانه
الحديدية ، وسحب دخانه القاتم تضرب الجو ، وتصيب العيون .
وهم ينظرون إلى الأرض التي تنطوي تحتهم . كان ليست يتلهى
كطفل ، وأما هي فقد كانت مطمئنة ساكنة في موضعها .

كان مع الكونتس بناتها الثلاث . وها هي ذى « لوزون »
الصغرى تمرض ، ويصيبها وجع أليم في حلقها . فلا تقدر على
طعام ولا على شراب . وهي فريسة حمى شديدة . فقلقت الأم
على ابنتها ، وهبت تبذل جهدها لا ستنقاذ حياتها . في حين
انقطع والدها عن أسرته ، واسترسل في مشاغله ولذاته . ويبدو

أن الجهود كلها ذهبت عبثاً ، لأن الفتاة استبدت بها الموت .
 جاء ليست فوقعت بين ذراعيه مجهشة بالبكاء . هل خيل
 إليها أن هذه الضربة هي مما أعده لها القدر جزاءً وفاقاً ؟
 لكنها لم تكن بالمرأة التي تؤمن بعدالة القدر ، أو تحترم شرائع
 الحياة . إذ ما هي الأمانة ، والأسرة ، والفضيلة حتى تصان
 أقدارها ؟ أو ليست السعادة — في أية لحظة — هي الشريعة
 الصادقة ؟ أليس تشبثك بالسعادة العابرة وحرصك عليها أفضل
 من تمسكك بشريعة سماوية ترهقك بأثقالها ، وتقتلك بآمالها ؟
 كان للكونتس والدة تقيه طالما اشمازت من تصرف ابنتها ،
 وطالما أرادت أن تثنيها عن هذه الحياة التائهة . لكن الفتاة
 ما كانت لتزيد إلا انطلاقاً وراء أهوائها وملذاتها ، بل راحت
 ترغم أمها على مرافقتها حيث تذهب . لأنها تريد أن تقاسم
 عاشقها كأس اللذة والسعادة ، لأنه هو رجل أحلامها . هي
 لا تريد منها جدلاً ولا منطقاً لأن حبها فوق الجدل والمنطق .
 إنها ستقاسمه إكليل الشوك أو إكليل الغار . بل كيف تغادره
 وهي تعلم أنها سر عبقريته ؟ فهل تعصى الله في إخماد هذه
 العبقرية التي كلفت برعايتها ؟

وهكذا هام الاثنان في وادي الحب متنقلين من مكان إلى مكان ، من شوامخ الذرى البيضاء إلى مهاوى الأودية السحيقة ، والسهول الخصبية الندية في أطراف سويسرة . يسكنان حجرات ضيقة كالكهوف ، ويتقاسمان الجوع والنصب والمخاطر .
 وكم مرة طوّفا ما شاءا حتى هبط المساء ، وأدركا نزلا على الطريق ، وأكلا أكل المنهز ، وانتقيا سريراً من العشب ،
 وناما متعانقين ...

لقد قطعنا كل اتصال لهما بالعالم ، فهما يعيشان بعيدين عنه وكأنهما ليسا منه . ولعمري هذا هو الهناء الذى يجنيه الحبيبان حين ينحيل إليهما أنهما كون مستقل عن الأكوان ، وطبيعة ليس لها اتصال بطبيعته . فلا رسالة تصل ، ولا صحيفة تتسرب .
 وإنما جل ما هما فيه أن يحدث ليست فتاته عن المستقبل المنير الذى ينتظره ، أو عن الظروف التى توحى إليه أروع قصيدة فى الحب ، أو عن نجواه للطبيعة المشرقة يدعوها لتهمز معهما طرباً وسروراً .

فى مساء ما استطاعا أن يبلغا مرتقى صعباً معلقاً بين مخارم الجبال ، تناثرت عليه بعض أشجار من الصنوبر الضئيل ،

ولكن العين لا تلاحظ عليه إلا نتفاً من العشب القصير وزهرات
صفراء تنحني على الثلج . وفي شق منه غدير صغير لا يحرك
منه الهواء إلا صفحة سوداء ، لا سمكة تقدر أن تحيا فيه ،
ولا وعل اقترب منه ليشرب ، ولا عصفور بلبل بمائه جناحيه .
كان الأفق ممدوداً أمامهما على سعته ، وفي أعماق تلك السكينة
العميقة كانت تصل قرعات ناقوس تتردد في أحد الأودية .
وبدت نجمة الحب في تلك اللحظة تعكس أنوارها الصافية
على تلك البحيرة .

هتف ليست :

— يا محبوبتي ! انظري هذا الكوكب الجميل ! كم يشفق
على هذا الماء اللعين ! وكم يود أن يعزیه في وحشته ! أنتِ
كهذا الكوكب الجميل أضأت حياتي ، وفتحت آفاق مستقبلي !
هذا بعض ما كان يتردد في حياتهما البوهيمية القروية ،
ولكن لا يمكن أن تدوم هذه الحياة .

قال لها ليست يوماً :

— إن هناك صديقاً لي يهين لي دروساً أعطيها ، لأن المال
أوشك أن ينفد . وأنتِ إنما صرت رفيقة فتى بوهيمي فنان لا يملك

مالا . وهو لن يمس شيئاً من نقودك . وأنت آليت على نفسك
أن تقاسميه حظه مهما كان .

ما كان أطوع الكونتس لفتاها ! فقد حزما متاعهما واستعدا
للرحيل . لبثا ثلاثة أيام ينحدران من فردوسهما المفقود ، حتى
بلغا « جنيف » في ٢١ آب (أغسطس) سنة ١٨٣٥ ،
وأويا إلى نزل فخم في المدينة ، ثم ما لبثا أن انتقلا إلى بيت
فيها ، كانت الحياة فيه جميلة برغم بساطة المسكن ، لأنه غني
المشاهد ، رائع الطبيعة .

بدأت المدينة تلغظ في الحديث عن الزائرين الحديدين ، كما
كانت باريس تتحدث عن هربهما . وقد بلغ المدينة النبأ ،
فسار كل ساكن يود أن ينظر هذين الغريبين المحبين الهائمين .
بل أصبحت حياتهما موضوعاً لأقاصيص كثيرة ينسجها الوهم
حيناً والواقع حيناً . وكأن هذه الحالة جعلت الكونتس في
وجوم من نفسها ، حتى أخذت تؤثر الوحدة والابتعاد عن فتاها
حين يخوض وحده في المجامع ، لأنها غدت ترى في كل عين
سؤالا ، وفي كل كلمة تأنيباً .

أما ليست فقد كانت حياته نسيج وحدها في تلك المدينة ،

على غبطة في النفس ، وكبرياء في الفن . وما أصدق ما قالته
 إحدى السيدات في وصف موكب هذين العاشقين :
 « إن الحميلة التي كانت ترافق ليست إنما هي امرأة في
 الثلاثين تقريباً ، لها زوج هجرته ، وخمسة أولاد أو ستة ،
 وليست رجل رقيق المزاج وإن كان قاسى الملامح . تدل طلعتة
 على رفته ، وإن دلت على خيبته . وقد لا نرى في أحاديثه
 ما يدل على عمق ، ولكنه لا يخلو أحياناً من أن تصدر عنه
 الأفكار العميقة . إنه ضائع النفس لأنه يحيا في وسط أدب
 اتسم بمبادئه الخطرة المتطرفة . فهو قد طرح العقائد جانباً دون
 أن يضع شيئاً عوضاً عنها ، واسترسل إلى حياة حرة مطلقة من
 كل قيد دون أن يسيطر عليها ضمير . قدم لى فتاته كخليفة
 دون أن يبكته شيء . وبرغم ذلك شاهدته نبيل النفس ذاهلاً
 مجنوناً ! وأذكر أنني دخلت معه في جدل كثير ، فكان أبرز
 ما يتصف به هذا العقل أنه يجب الانطلاق من كل شيء .
 إنه رفيع النفس والأسلوب ، وطالما بكيت حين سمعته
 يعزف ! إنه شيطان فنان ! يفيض حياة ، ويتوقد ناراً ،
 ويتفجر عبقرية . يا للمزيج الكامل من الخير والشر ! يرتكب

الخطايا دون وازع أو مؤنب ، ويجد نفسه سعيداً وسط هذه الخطايا . يا له من خليط متناقض يمثل نفسية هذا الفنان ! «
وهناك امرأة أخرى حاولت وصفه فقالت :

« جلس ليست في مكانه ، كانت أنامله دقيقة ، وفي
بنصره يحمل خاتماً نقش عليه رأس ميت محلى بالفضة والذهب .
وكانت خصل شعره تهادى على كتفيه ... بعد طعام الغداء
قام يستريح ، وكان مرحة لا يحد بحدود . أمسك بقطتنا
البيضاء ، وأخذ يداعبها ويقبلها ، ويقضى معظم راحته معها .
وبعد قليل دنا من البيان ، وراح يعزف . فكان يخيل إلى أنه
ليس هو بالعازف ، وإنما شيطان عبقريته . فكانت تمر على
وجهه كل أحاسيسه ، وحركاته النفسية وأفكاره كأنه انتقل إلى
عالم مسحور . فليس هناك كلام يعبر عن هذه الحالات :
فالأحاسيس تقيدت ، والمشاعر تحددت ، فلا عدت تسمع
أو ترى إلا الفنان ! والأنامل التي كنت تحسبها نحيلة ضئيلة
أخذت تغلب على زئير العاصفة . إنه استهوانا ، وأذهلنا عن
نفسنا ووعينا ، كأنما باطنه يقول : أيها الأقرام ! إنني هنا
السيد ! ... تمر أنامله دون أن يراها كيف تنتقل ، وعيناه

تسبحان في الفضاء الرحيب ، كأنه يقرأ علينا صفحات غير
 مرئية ، أو يؤلف مقطوعة خفية ، أو يستنزل وحياً وليد الساعة .
 وكنا نشعر أن الآلة تضاءلت أمام عبقريته الفذة حتى عجزت
 عن التعبير . إن السامع له لا يصغي بأذنيه ، وإنما يرتعش
 بنفسه وقلبه . «

* * *

شاء القدر أن تضع الكونتس ابنة في ١٨ ديسمبر عام
 ١٨٣٥ سجلت باسم « بلاندين » الابنة الحقيقية للأستاذ
 الموسيقى فرانز ليست وعمره ٢٤ سنة ، وكاترين وعمرها ٢٤ سنة
 وليدة باريس . وهما قرينان بدون زواج . على أن عمر الأم كان
 في الواقع فوق الثلاثين .

لم يمر ربيع ١٨٣٦ حتى بدا شيء من القلق والذبول على
 وجه كاترين . فالأمومة لم تشغلها عن نفسها إلا قليلا ، وهي
 لا تطرق المجامع إلا لماما ، لأن وضعها كان يزعجها ، وهي
 التي كانت في المنزلة العالية والحياة المترفة .

قادها ليست لتشاهد أزهار الأشجار والحقول في أوائل
 اخضرارها بين الأودية الثلجة ، فشاهدا كوخ « غليوم تل »
 وبحيرة « فالنشتاد » وسمعا نواقيس « جنيف » والأغاني القروية ،
 وتسابقا إلى اقتطاف الأزاهير بين أعشاب الجبال النابتة بالقرب
 بساط من الثلج الأبدى .

هكذا قضيا الصيف ، وابتعدا عن مشاغل الحياة والدروس الموسيقية التي كان يعطيها ليست طلباً للحياة . وفي كل مرة كانت تذكر باريس وحياتها كان ليست يثنيها عن هذه الذكرى ، لأن السعادة الحقيقية هي السعادة التي ينغمسان فيها الآن . وفي هذا الصيف كتبت الكونتس روايتها « نليدا » وهي قصة لا يمثل بطلها في الحقيقة إلا ليست نفسه . ومن أجدر من هذه المرأة التي عرفت نفسية ليست بأن تكتب عنه ؟ فمن هو البطل « جيرمان » ؟ « إنه فتى أوتى مواهب نادرة . إن له مظاهر العبقرية والإحساس . توقد في حديثه ، وإرادة لا ترد . كبرياء عالية ، وتعطش إلى الجمال حيث كان ، وبأى زى كان . ولكنه - برغم ذلك - أوتى تناقضاً غريباً لا يوفق بين صفاته . إنه لا يملك إلا قوة الانبساط والتفتح . أما قوة الانضمام فهي تنقصه . إنه يطيع كل غرائزه التي تناديه ، وكل الدوافع المتناقضة التي تدعوه . حتى كأن نشأته القروية الأولى لم تترك أى أثر في نفسه . وإذا انفرد بنفسه راح يقرأ بنهم لأنه يريد المعرفة والتبسط في المعرفة ، لكنه يقرأ بدون تعيين ولا تمييز . فالفوضى طبيعة مكنية في نفسه ، والظماً وراء المحال

ينهش قلبه ... »

وهما على هذه الحال إذا بركب الكاتبة - جورج صاند -
 ينزل عليهما ، وقد غادرت باريس بعد طلاقها من زوجها ،
 ومعها ابنتاها الصغيرتان . والندل الذي رآها تهبط من العجلة
 رأى فيها شخصاً غريباً يلبس لبس الرجال وهو امرأة ، وينفث
 فمها الدخان . سألته عن ليست ذى الشعر الطويل المشعث
 فتضحك المسئول ، وقدم لها اسمه ، فقرأت على ضوء الشمعة :
 الاسم : فرانز ليست : موسيقار ، فيلسوف ولد في
 البرناس . جاء من الشك ، وذهب إلى الحقيقة .

جنسيته : الطبيعة

من أين : من الله

إلى أين : إلى السماء

مكان الولادة : أوربا

الصفات : بطال

مجاز من : الرأى العام

وما هي إلا لحظة حتى اجتمع هؤلاء ، وكان لاجتماعهم
 هتاف من الفرحة عنيف . وبذا دخل شخص جديد في

حياتهم الهادئة . وطبيعي ألا تحب جورج صاند الاعتزال في موطن واحد ، وهي التي جاءت كرائدة تطوف في هذه المناطق الجبلية الجميلة ، فكان لها ما أرادت ! وساروا قافلة واحدة يشقون المسالك الوعرة من مجاهل الألب ، حيث يتناثر الحصا تحت حوافر البغال على حفاف المهاوى العميقة . وليست لا يستهويه من كل ذلك إلا مرأى السماء . والكونتس مزعجة النفس ، تريد أى منتهى لهذه الرحلة المتعبة . على أن ليست يدعوها إلى التصبر « لأنهم يبحثون عن أصل العالم ، ويكفي النظر في الفضاء مغنياً عن التفكير في أى شيء . »

دامت الرحلة زمناً طويلاً برغم لواذع البرد فوق الذرى ، حتى انتهى بهم المطاف إلى نهر الرين الذي ترصعه الجسور المنصوبة ، ويهيج ماؤه أحياناً ويثور . ولكن مقدم الخريف عكر عليهم التملئ بمحاسن هذا النهر . فكان الضباب - غالباً - يصاعد على سطح النهر حتى يوارى كل شيء على ضفتيه ، وكانت قطرات من المطر تنهل عليه ، وتحجب زرقة الأفق عن العيون . وفي كل هذا جمال أى جمال .

إن بين الأدب والموسيقى ألفة شائعة لا تنكر . وها قد اجتمع

في بيت واحد أدبية مرموقة ، وموسيقار بارع . فجورج صاند
تصف ما كان يعبر به ليست في مقاطيعه . وليست يوحى -
بطريقة الموسيقى - المقاطيع الشعرية الثرية التي كانت صاند
توشح بها مقالاتها . وهكذا ولدت بحيرة « قالنشتاد » ذات
الأمواج الكبيرة الموسيقية ممثلة ماء ينحدر برقة على منحدر ،
وكذلك ألف مقاطيعه « أعوام الحج » و « وادي أوبرمان »
و « أجراس جنيف » ، وكلها مقاطيع ذات رنين مدوّ كالبرونز .
وخلال هذا الحصب الفني كانت الكونتس تتلهى بتلاوة
« دانتى » و « غوتى » . ولكنها سرعان ما سئمت ، فراحت
تبحث عن أغراسها اليابسة ، وتقتلعها وتضعها على المنضدة .
فذكريات البحيرات والجبال والعزلة والهوى السعيد والأحاسيس
المتوزعة عاودتها ، فلم تمالك أن أرسلت دمعها على هذه الأوراق
اليابسة ، ثم ارتمت مجهودة مكدودة على مقعدها ، تعصر رأسها
بيديها وتفكر ... وإنها لتعلم أن ليست قد عقد صداقات مع
كثير من أسر المدينة . فهي تتخيل جلساته ، وتتصور أحاديثه ،
ومدى ظفره . وما كانت تملك إلا أن تتركه ينصرف ، وتجلس
إلى الساعة تنتظر ، وتنظر تنقل العقربين بقلق واضطراب ،

فريسة سأم عنيف . وقد ظنت أن باريس ستعيدها إلى توازنها
وتسمع بأذنيها الضجرتين الساعات المتجاورة تتجاوب معلنة ،
الواحدة بعد الأخرى ، ساعات الانتظار ، حتى إذا دخل عليها
تلقتة بالعناق كأنه آت من سفر بعيد ، وطلبت إليه أن يحدّثها
عن سهرته وما فيها . فيأتي جوابه بما يثير شجوها وأساها . ولكن ما كان
أشد اغتباط نفسها حين يفاجئها بعزفه « المقطوعة التي وقفها على
حبها ، والتي ألفها من أجلها . هذه المقطوعة هي : حلم حب ! »
ترامى إلى ليست أن عازفاً حدثاً نبغ في باريس فخشي منه
أن ينافسه على موضعه . فاعتزم العودة إلى باريس وحده .
عاد واستطاع أن يزحزح خصمه عن منافسته ، وعادت
الكونتس على أثره . فكان همها الأول أن تجعل من المنزل
البسيط صالوناً فخماً يأوى إليه عظماء الفن والأدب والموسيقى .
وفي الحقيقة أخذ رهط من هؤلاء يعوجون عليه . وكان الرأى
يلحظ بينهم « فيكتور هيغو » بقامته القصيرة ، وجهته الواسعة
ذات الأخاديد . وجورج صاند وعشيقها الموسيقي « شوپان » .
« وبلزاك » الذي يترامى في مشيته كالثور الضخم ، « ولاميتي »
الذي يتردى مسوح الرهبان . ومع ذلك كله ظلت الكونتس

الأول . ولكن ، لا باريس ولا عظماء باريس استطاعوا أن ينسوها ماضيها !

كانت في هذه الجلسات التي يغلب عليها الأدب المحض والفصاحة كامرأة عاقلة منفية بين هذه الرعوس ، على أنها ترق نفساً حين يخفف ليست بعزفه هذا الجو المثقل .

مرت الأيام على هذا النسق الرتيب ، حتى أصبحت الرابطة بين الحبيين علائق تخضع للعادة لا للحب الموروث . فها هما الاثنان يرحلان إلى إيطاليا ، كأنما حب التنقل من طبيعتهما ، أو من طبيعة ليست الغريزية ، لأن الكونتس كانت تضيق ذرعاً بهذه الحياة البدوية .

وفي ميلانو دُعي ليست إلى ليالٍ عازفة شريطة أن يتخلى عن شخصيته الفنية التي تردد الألحان العميقة الوجدانية ، بحجة أن الشعب الإيطالي لا يستسيغ مثل هذه الألحان ، لأنه شعب مرحٌ يحب من الألحان لحن القالس مثلاً ، والألحان الخفيفة ، والأصوات المقلدة ، على أن ليست استطاع أن يوفق في هذه الحفلات بين هواه الخاص وهوى هذا الشعب الجامح في مرجه .

لقد أرادت الكونتس أن تحبس عشيقها في قمقم . لكن ليست ليس من الطيور التي ألقت الأقفاص . وقد بدأت ثيابها المستعارة تتساقط ثوباً ثوباً حتى بدت بحقيقتها ، فإذا هي امرأة يراها ليست أنانية مفرطة في أنانيتها ، تحب الفن ، ولا تحسن تذوقه ، ظالمة قاسية .

إن الفنان يريد أن يكون حراً بعيداً عن القيود . فها هو ذا يميل إلى التنزه وحيداً ، ويأنس بالعزلة بعيداً . وكأن الفتاة قد أحست أن سلطان ملذتها عليه قد فقد قوته ، ولكنها تريد أن تتمسك به ما وجدت إلى ذلك سبيلاً . وليس هنالك إلا سبيلان : أن تثير في ليست عاطفة الأبوة ، وأن تصرفه نحو مشاهد للجمال الكئيب ، فدعت ابنتها « بلاندين » من سويسرة حيث كانت تتمتع بالهواء العليل . وكان معها في انتظارها ليست على شاطئ بحيرة « كوم » حيث وضعت في ١٥ ديسمبر سنة ١٨٣٧ ابنة ثانية سميتها « كوزيما » تفاؤلاً

بهذه البحيرة ، وإعجاباً بجمال مدينتها ، وإيماناً بقديسها « كوسم » وهو طبيب عربي صالح . ثم انتقلا إلى « فينيسيا » وقد أيقنت الكونتس أنها استطاعت أن تجذبه إليها مرة ثانية بعد ما نفر عنها بقوة الفن نفسه . ولكن لماذا تراها أحبت فناً ؟ أو لم تكن تدرى أن الفنان كالمرأة سريع الوقوع ، سريع الفرار ؟

نزلا في أحد فنادق المدينة ، وأخذوا يطوفان على الجندول في الأقنية بين القصور الخربة ، ويذهبان إلى الجزائر المتناثرة بين الماء والسماء ، حيث يرف جناح طائر على جناح ، ويتأملان مزقاً من الغيوم الهائمة ، وردية حيناً ، ومشربة بالزرقة حيناً ، أو متوهجة حيث يبرز القمر زاحفاً على أثر جنازة الشمس المضرجة بدمها !

وفي فينيسيا اعتلت الكونتس ، فقدر له أن يزور - خلال علتها - آثار إيطاليا الفنية وحده ، متنقلا من عبقرية رافائيل إلى ميشيل أنج ، إلى ليوناردى فنسى . فكانت رحلاته المتتالية بين بولونيا وفلورنسا وروما دروساً عميقة الأثر في نفسه ، إذ اقتبس عنها جلال التماثيل المنصوبة ، وتناسق الصور المعلقة ، ونظام المباني ، وصفاء السماء !

كتب ليست إلى صديقه الموسيقي « برليوز » يحدثه عما تركت
في نفسه هذه الزيارات :

« إن رافائيل وميشيل أنج جعلاني أفهم الآن موزارت
وبيتهوفن . وهذا دانتى قد قبس تعبيره القصصى عن
ميشيل أنج »

وفي هذا دلالة واضحة على ما يريد به الفنان من هذه
العلائق المتينة التي تربط ما بين ضروب الفنون ، وإن
اختلفت .

أرادت الكونتس أن تتوثق منزلتها في الأوساط الإيطالية ،
لكنها لم تظفر بأكثر مما ظفرت به من قبل . في حين كان
ليست يدخل حيث يشاء ، ويدعى إلى الحفلات وحده .
فزاد هذا الوضع نفس الكونتس شجاً وحقداً . إذاً فلتبق في
الفندق مستريحة ! وليذهب هو حيث يريد ! ما همها من
ذلك ؟ لكن هذا التعليل لم يكن صادقاً في نفسها ... إنها تريد
منه الآن أن يبقى بجانبها لأنها متألمة . وهو لا يستطيع ذلك ...
إذاً ، فليكن ما لا بد أن يكون !

بعد هذا الفتور ، بدأت رحلات ليست البعيدة بين عواصم

أوروبا المختلفة . وامتد عمر هذه الرحلات من عام ١٨٣٩ إلى عام ١٨٤٤ . زار في أثناءها فرنسا ، وإنجلترا ، والنمسا ، وپولونيا ، وألمانيا ، وسويسرة . وكان موفقاً في أسفاره وآثاره . إلا أنه لم يصادف نجاحاً في إنجلترا التي كانت فقيرة بروحها الموسيقية .

ومما يذكر في ذلك أنه في إحدى الليالي لم يجد في البهو سوى ستة مستمعين . فاعتذر عن العزف ، وخاطب المتفرجين بقوله :
 — إن الموسيقى هنا تضمحل . هنا فراغ وخلاء ! فاسمحو لي أن أترككم ، وأن تستردوا دراهمكم . على أن تكونوا الليلة ضيوفاً في منزلي ، وهناك سأعزف لكم ما يلدكم .
 وفي لندن أوشك أن يظفر بنجاح عظيم ، لولا أن الكونتس نزلت البهو بغتة ، فسرى في الجمهور همس بسلوك هذه الكونتس فتفرقوا ... أما في ألمانيا فقد ضرب بسهم موفق حيث كان ، مكرماً في كل مكان . واكتظ البهو حتى لم يجد المتأخر موضعاً . وفي إحدى حفلاته نزل طالبان مقبلان من « ليزيغ » للاستماع إليه . لكنهما لم يجدا مكاناً ، وحين أبلغاه أمنيتهما أجابهما :
 — أمهلاني ساعة هذا المساء ! سأعزف لكما وحدكما ،

ولن يذهب عناؤكما باطلا .

وحين غادر ليست برلين كنت ترى أكثر من خمسمائة طالب على جيادهم يودعونهم ، ويلقون عليه الهدايا والأزهار تكريماً لفننه السامى . على أن ليست فى أسفاره كلها لم ينس فتاته ، بل قد انتقى لها جملة هدايا نفيسة من مختلف البلدان . ولم ينس أن يبثها شوقه بين الحين والحين برسالاته المتتابعة ، وهى تجيب اقتضاباً ، أو لا تلتقى جواباً .

هو يكتب إليها :

« لقد مرّ على أسبوعان دون أن أتلقى منك كلمة . ليس لى إلا أن أفكر ، وأعتقد . إننى جد كئيب . صورتك معلقة أمامى . أحبك حباً شقيقاً صادقاً . قولى لى : إنك معى فى عاطفتى وحبى . ليس لى إلا كلمة واحدة ، وأمنية واحدة ، وخففة فى فؤادى واحدة . همى أن أراك ، وأراك ... »

وهى تجيبه :

« إننى أريد أن يقلبك ما يقلقنى ، من هم يشجبنى ، وحزن بك يشغلى ... لقد كان يكفينى منك كلمة واحدة تجعلنى أتقبل ببساطة ما لا تجده أنت بسيطاً ... »

والآن ، تحمله بقية معزوفاته إلى « بودابست » وطنه الأول ،
ومسقط رأسه . فتذكر طفولته حين كان يجد هذه الروابي
المخضرة كالأوقيانوس الهامد ! وهذه السهول المحاطة بالغدران ،
وهذه المسالك الموغلة في الحقول المترامية... أوليست هذه المشاهد
هى حلبة أيامه الأولى ؟

كم من ذكريات هبت عليه حين وطئت قدماه هذه الأرض !
وما فى هذه الذكريات إلا كل عزيز ، لأنها تحلت بذلك
الماضى الذى لا يرد . وللماضى روعة قدسية بليغة ! ولم يكن
لقاء وطنه له بالشىء الهين ، لأن اللقاء كان احتفاء الوطن كله
بابنه النابغ . فما أشد تأثيره حين دخل بيت طفولته ، وكنيسة
قريته التى شهدت وقفته الأولى للصلاة ! وفى وطنه قدم له
مواطنوه المجريون خنجراً اعترافاً بعبقريته وخدمته لبلاده . وعنه
يقول : « إن فى المجر ، فى البلد المتسم بالأخلاق القديمة
والفروسية ، يؤدى الخنجر معنى وطنيا خاصا . فهو إشارة إلى
الرجولة ، وهو السلاح الذى ينبغى لكل رجل أن يحملة .
وإذا قدم لى رجال وطنى المختارون هذا السلاح ، بعد غيبة
خمسة عشر عاماً ، فهم يقدمونه مكافأة لى على خدمتى للفن

في وطني . وإنني لأجد في تقديمه شرفاً لي لا يقدر ، لأنه
يدعوني إلى القيام بواجبي في الحياة كإنسان وكفنان ... »

* * *

بلغ الآن ليست الثلاثين من عمره ، واستوى في أوج مجده
وجماله . صفرة مذهبة ، وعينان زرقاوان تلتهبان ، وفم تراصت
أسنانه بصفاء . وبسمة هي بسمة ملاك . ومثل هذا الجمال
ترك نسوة باريس يطفن حوله طواف النحل على الزهرة الناضجة ،
فهن يزدحمن حيث يكون ، ويأخذن من آثاره ما ينافسن به
غيرهن ليكون تذكراً . وهو في هذا الوسط يحيا مرحاً ، نشيطاً ،
يزيده مجده زهواً وكبراً . يشرب ، ويضحك . ويدخن بإسراف ،
دون أن يستثنى شيئاً من لذائد الحياة .

وطبيعي ألا يثير هذا الضرب من الحياة في نفس الكونتس
إلا الغيرة المشتعلة . وهي لا تنى تبحث عن أى سبيل تردّ به
فتاها إلى هواها . ولكن ليست كالفرس الجامح لا يلوى به
شيء عن هواه . فلا الكونتس ، ولا أولاده الثلاثة بقادرين على
أن يقفوه عما هو مسترسل فيه . وقد جربت الكونتس أن تثير
فيه الغيرة ، فكتبت إليه : أن الناقد « سانت بوف » أخذ

يردد عليها كزائر ، وعاذل ، ومشتاق ، ومحب . لكن ليست
لا يبالي بأقوالها ، لأنه أدري بجائلتها المنصوبة . على أن
الرسائل المتناوبة بين ليست والكونتس تعين مراحل هذه الأسفار
الطويلة ، فالكونتس مع أولادها الثلاثة منبوذون في باريس ،
يتحملون شظف العيش ، ويقاسون متاعب الحياة ، في حين
لا يجدّ هو إلا في لهوها ، ولا يعن إلا في لذائذها .
هي تكتب له :

« يا فضيلتي ! يا قوتي ! يا أحزاني المقدسة ! يا بأسى
الإلهي ! على أي حال أنت ؟ لقد تركت نفسي خالية ،
وقلبي فراغاً . إذ لا فرح في الحياة يغنيني ويسليني ...
يا ليست ! إنك لم تحبني - في لحظة من حياتك - كما
أحببتك »

ولكنه كان يحسن الإجابة :

« لتحي ! ولتسند ذراعك ذراعي ! دعيني أنم بهدوء على
قلبك ، فإن خفقاته عندي خفقة الجمال المثالي ، والحب
الأبدى » .

حتى إذا تلاقى الاثنان همد هذا الشعور ، وجمدت العاطفة .

وقد أحس ليست أن الأمور لن تبقى طويلاً على هذه الحالة
التي يحتالها لها . إنه فنان يجنح إلى الحرية ...
« إنني أتألم من أعصابي ... وحياتي تذوب في رغبة جامحة
سوداء إلى رؤيتك والتملك عليك . لقد أحببتك دائماً - كما
تعلمين - وطويلاً ، حب جهالة وحنون . والآن علمت برغم تألمي
بقربك أن هذا الألم إنما هو حياتي . إن ساعة انفصالنا
تروغني . إنه كناقوس الموت . وداعاً ... مع حبي العميق ... »

* * *

حين عاج ليست بباريس كان سكرتيه يتولى الإجابة عنه
على كل ما يردده من كتب المعجبين ، وطلبات الطالبين .
وما كان أكثر هذه الكتب وهذه الطلبات ! وجلها من سيدات
وغانيات . وليس لليست إلا أن يستقبل آتياً ، أو يشيع راحلاً ...
في أحد الأيام شاهد فتى ألمانيا طالماً رآه يستمع إليه ،
ذا وجه قبيح ، وشعر مشعث ، يرتدى ثياباً ضيقة . أقبل عليه
الفتى وكلمه بالألمانية :

- يا سيد ليست ! إنني لست بمواطن لك . ولكننا أيضاً
غريبان هنا . أما كرم خلقك فقد ضربت به الأمثال . إن

الفنانين الغرباء الذين يتلاقون في باريس يجمع بينهم حب الموسيقى .

وحرى بهذه اللهجة الصارمة أن تستثير انتباه ليست .
فترك هذا الفتى يتم قصة حياته التي هي قصة حياة كل فنان .
ولوع بالفن ، فمغامرات من أجله ، فعوائق في وجهه ،
فحالات متقلبة من يأس ورجاء ، وشك واطمئنان ، فجهاد
للحياة حيناً ، وللفن حيناً . وإنه الآن ليتخبط في مهاوى العوز
ومطارح الغربية مع زوجته ، وكلبه الشقى .

التفت إليه ليست مسائلاً :

— وما شأن هذا الكلب معكما ؟

— إنه كلب ضخم ، أحبه كأعز صديق لي ، لا أقدر أن
أتركه . أما زوجتي فهي كريمة النفس ، طيبة القلب . والآن
ليس لدينا ما نأكله ... هل تستطيع أن تقدم لي من مقاطيعك
الموسيقية ؟ ألا يدهشك أن الحاجة تدفع مثلي إلى ممارسة موسيقى
الرقص ليجد له أكلاً ؟

أدرك ليست أن مخاطبه ليس بالسائل المستجدي ، وإنما
هو فتى يحس شيئاً في أعماق نفسه . وفي الوقت ذاته يتجاذبه

داعيان مختلفان . داعى الحياة ، وداعى الجمال . وكأن ليست
استحيا من نفسه أمام هذا الفتى المحروم . فوعده خيراً ،
وأبدى اهتماماً بأمره . فسأله عن مسكنه الحالى :

— شارع هلدر ، رقم ٢٥ .

وعن اسمه :

— ريشارد فاغنير !

وما « ريشارد فاغنير » إلا رب الموسيقى الحديثة بعد بيتهوفن .

* * *

فى مدرج الأعوام اللاحقة ، لم يكن ليست ليفرغ من
 أدوار غرامية يمثلها على ملعب الحياة ، على أنه ظل وفيماً
 للعهد الماضى ، محترماً للحب الأول . فهو يخوض الليالى ،
 ويضرب المواعيد للهائمات به ، ثم نراه لا ينقطع عن زيارة
 الكونتس والتحدث معها ، والاطمئنان على صحة أولادها .
 كانت ابنته « بلاندين » فى الخامسة والنصف ، و « كوزيما »
 فى الثالثة والنصف ، و « دانيال » له عامان . يعيشون جميعاً
 فى بيت ليس حاله على فخامة برغم غنى أبيهم . حتى كانت
 الصغيرتان تحتاران فى المكان الذى يختارانه لوضع دُمَاهما .
 أما الأحاديث الجديدة ، حين يجتمعان ، فقد تغيرت
 واختلفت عن الأحاديث التى كانت تشرق بالحب ، وتزخر
 بالشوق . أحاديثهما الآن عن صغيرة نجمت أسنانها ، وأخرى
 تسقطها ، أو تشكو التهاباً فى حلقها . ولكنها - خلال
 ذلك - تلومه ، وتعنف فى لومه على هذه المسالك الشاذة التى

يسلكها في كل مكان ، وتذكره بالعلائق التي تربط ما بينهما .
 بل نراها تنتقل من هذا اللوم إلى التهديد بأنها امرأة لم تعد لها
 القدرة على الحياة في هذا الوضع . إنها تأملت من أجله ، وهي
 التي كانت تقدر أن تجد السعادة والغبطة في حجر فذاتها
 الحبيب . وإذا قدر لها ألا تجرى حياتها إلا على هذا النسق
 فليكن الفراق إذاً ...

لكن ليست لم يكن من قوة الإرادة بحيث يستطيع التصريح بما
 يريد أن يقول . ولكنه راح كدأبه يمهل ويمهل ... وظل يتبع
 هواه، فله في كل منزل ينزله حبيب يلفه، أو غادة يستريح إليها.
 عاد إلى برلين ، فلقى في حسانها ما أذهله عن حسائه ،
 وإن لم يذهله عن مواصلة الكتابة إليها ببرودة حيناً ، وحيناً
 بحرارة . وفي برلين يأتيه الظفر مرة ثانية ، فيجعل من ليست
 رباً موسيقياً ترحب بقيثارته الأرباب . « يا له من فوز
 غير مقدور . غصّ المكان بأكثر من ثمانمائة مستمع . كم
 صفق لي الملك إعجاباً ! إنني مريض بالعزف والفوز معاً .
 إنهم يريدون أن يسمعوني ، وألا يسمعوا غيري . ما أشد تعبي
 في هذه الليالي ! »

وفي ربيع سنة ١٨٤٢ انتقل ليست إلى روسيا ، فكانت
رحلته كرحلاته الأخرى مكلفة بالفوز . وبينما كان يعزف أمام
القيصر في حفلة عارمة لاحظ ليست أن القيصر مشغول عنه ،
خائض في حديث مع مجاوره . وقف ليست عن العزف فجأة ،
فأثار انتباه المستمعين . ولكن أحداً لم يتكلم . وحين جاء ليست
يحيي القيصر سأله عن سبب وقوفه عن العزف ، فأجاب ليست
جوابه المعروف :

— إذا تكلم القيصر وجب على الآخرين أن يسكتوا .
فما حرك هذا الجواب المتحدى إلا الغضب في نفس القيصر .
من أين جاء ليست ؟ ومن هو هذا الشخص الذي يتحدى
القيصر ظل الله على الأرض ؟ ليخرج من البلاد غير مأسوف
عليه !

وما كان أعجب هذا التعليق الذي وجد مخطوطاً على اسمه !
« الاسم : ليست . مجرى الأصل . مجهول الأبوين . شخص
خطر . حر الفكر . صديق الملحددين . منطلق مع أهوائه .
سكير ، ينبغي إخراجه من البلاد »

وهكذا خرج ليست من روسيا غير أسف على بلد الظلم

والطغيان . وخلال عودته ومقامه في الأرض الجرمانية كانت
الكتب بينه وبين الكونتس تتوالى كالعادة . ولكن أصبح لهذه
الرسائل طابع خاص . هو طابع الكآبة ، والعتاب المر ،
والحفوة المؤذنة بالقطيعة . فهي تتسقط أخباره في مطارح الغربية ،
وبخاصة علائقه التي يقيمها ويقطعها بين حبيب سابق ،
وحبيب لاحق ، فتحمل عليه من أجل هذه العلائق ، وتهمه ،
وتؤله ، وهو يزيع عن الحقيقة حيناً ، ويعترف بها حيناً ،
بل أخذ يعد وجودها حجر عثرة في تقدمه وعمله ، ومصدر
شقاء له . وهي تراخى أمام هذه الضربة ، وتنكش على
نفسها . وكيف تريد أن تقف ممن يقول لها بصراحة :

« لا أريد بعد الآن أن أكلمك ، ولا أراك ، ولا أكتب
إليك ، أو لم تنعتيني بالمهرج ؟ بلى ، إننى مهرج على طريقتي
الذى يمثلون دور المصارع بعد تناوله السم الزعاف ، ما همنى
ذلك كله ! ينبغى للسكون أن ينجم على آلام قلبي ... »
وهكذا جاءت القطيعة ! ولكن هذه القطيعة كان يقف في
وجهها عوائق ، منها عوائق الأولاد ، فهو يريد أن يقدم لهم
ما يستطيعه ، ويريد أن يوجه الأم في تهذيبهم على الطريقة التي

يختارها ، ويهددها بأن يستلهم من بين يديها إذا أرادت
تنشئهم على بغضه . ولما كان ليست مطبوعاً على طبع شعري
رقيق ، وذوق دقيق أثر ألا ينتهي هذا الحب الكبير الذي عصف
بحياته بمخنومات حقيرة .

وقد أوحى هذه القطيعة إلى الكونتس بهذه الأبيات :
« لا ، إنك لن تسمع أبداً ، من شفها المتكبرة ، في
الوداع الموجه ، عتاباً ولا أسفاً ... ! »

* * *

لم يبق بعد القطيعة من تواصل إلا بين ليست وأولاده. الذين
 تشرف على شئونهم جدتهم ، وهو لا يريد أن يكون للأم بهم
 أى اتصال . فكان يكتب إلى ابنته الكبرى « بلاندين » وهى
 فى التاسعة من عمرها رسائل تطفح رقة وحناناً ، ويطلب إليها أن
 تعانق أختها وأخاها الصغير . وتقول لهما : « إن أبانا يحبنا ويعنى
 بنا كثيراً ، ويوصينا بأن نركع جميعاً ، ونصلى لله ! » ونراه يكتب
 إلى ابنته من أسبانيا : « ابنتى العزيزة ! بعد يومين أو ثلاثة
 أقصد أسبانيا . فابحى فى الحارطة عن مدريد وليشبونة . إن
 ذكراك تتبعنى فى كل مكان ! ...

وداعاً يا بنتى ! كونى سعيدة ، ولا تشغلى نفسك بى الآن ،
 ولكن بعد زمان ما ، حين يتولاك الهم والحزن فكري فى أبيك
 الذى جهد - كل حياته - أن يجنبك إياهما ... »
 فى أسبانيا ذاتها لمح مرة امرأة تقرب من مقعده ، وترنو
 إليه بعينين بنفسجيتين . وسألته :

— هل تعرفني ؟

— أنى لى أن أعرفك !؟

— أنسيتَ « كارولين » تلميذتك ؟

— كارولين ! هذه أنت ...

لقد كان اللقاء فجائياً ، وكانت بواعثه شديدة التأثير في نفسه ، لأنه لقاء فتح خزائن نفسها ، واستنبش ما في عبقريته من رقة وحنان . وضرباً موعداً للقاء في الليلة الثانية في مسكنها . فأتاها ، واستقبلته ، وبرزت له برداء زاهر فاتن . وعلى وجهها مظلة من ورد تعكس ألوانها على وجهها ، وعلى ثغرها بسملة عذبة تنطوي على كآبة .

— يا ليست ! لقد مر على لقائنا الأول ستة أعوام ، هل تذكر

ذلك ؟

إنه ليذكر ذلك اللقاء الذى فتح قلبه لأول مرة ، وإنها لتذكر تلك السويغات الحميلة التى كانت تجلس إليه فيها ، وهما يرتشفان كؤوس الهوى . وكانا فى مدرج الدار ، حيث كانت تتساقط أوراق الأشجار متناثرة ، تحت شعاع النور المنحدر إلى الغروب ، ولا تزال الريح تهب دافئة . فمشيا معاً ، كأنهما

يستحضران ذلك الماضي العابر بعدما فرق بينهما الزمان ، ليجعل
 من ليست فناناً عالمياً ، ويجعل من كارولين زوجة رجل عادي ...
 تطامنت نداوة المساء ، وتركت الشمس على حواشي الأفق
 حمرة كالنجيع ، وجبال « الپيرينه » الشامخة المسنونة أطرافها
 غارقة في زرقة السماء .

كان على ليست أن يعود أدراجه من حيث أتى ، فتناول
 يدها المرتجفة ، يلثمها بخشوع ، وأقلته العجلة إلى مأواه في
 غسق الليل ، وهو مشرد اللب ، غارق الجفن في الدموع .
 هذا حلم عبر ، ليخلفه حلم آخر . وما أكثر أحلام ليست
 في حب إثر حب !

هنالك غانية - من الغواني الهائمات به - جاورته ،
 والتصقت به زمناً . وتصف لنا مذكراتها لياليها الأخيرة معه .
 وما كان أشبه آخرها بأولها :
 انتهيا من طعام العشاء ، وكان ليست لا يزال يدخن لفافته
 فجلست بجانبه صامته .

- إنك لفي ضجر الليلة . هلا قدتني إلى مرقص !

- إلى أين ؟

— إلى أى مرقص من مرقص المدينة ... إلى القصر الأحمر !
إن فى قدمى شوقاً إلى الدوران .

— ولكن ... أليس بقاؤك هنا خيراً ، وأنت مزكومة الليلة ؟

— لا يا صاحبي ! هذه هى الحياة الحارة تشتعل فى صدرى .
وأنا لا أفهم الحياة بدونها .

.....
إنها لمريضة ، وإن السل لياكل حياتها ، لكنها تريد أن
تخفى علتها ، وأن تذهل عنها . فلذلك راحت تزين العلة بثوب
شعري فى . وبينما راحت الحياة تثور فى نفسها على أحكام القدر
الجائر كانت كالمتهومة تريد أن تستنفد كل ملذات الحياة فى
الجسد والروح قبل أن يدعوها داعى الردى .

وفجأة انطفأ فرحها ، وغلبت عليها الرعشة ، فوضعت شالها
على صدرها ، والتفعت به ، وكأن غمرة من الوحشة انقضت
عليها ، فأخذت تتحدث عن أحوالها الأولى من شبابها ، وعن
ذكريات المطوية ، فأطبقت على صدرها غمامة من الكآبة .
فحاول ليست أن يسدل على هذا الماضى سترًا من النسيان ،
فتلهى بالعزف قليلا ، فأخذت تستمع إليه ، وما كانت

معزوفته إلا نشيد حب يتعالى من قلبه ، حتى إذا انتهى من
مقطوعته لفت رأسه إلى هذه المخلوقة الذاهلة الشاحصة فيه ،
فلم ير إلا امرأة خاضعة مستسلمة !

لبث الاثنان في حياتهما الجديدة ذاهلين عن كل شيء .
أما هي فقد تناست عشاقها الأوائل . وأما هو فقد زهد في
انتصاراته الفنية ، وكانا على حال حسنة من الغنى تيسر لهما
هذا النوع من الحياة . ولكن سرعان ما ضاقت بهما اليد ،
فراحت العشيقة تبيع ما تملك من حليها شيئاً فشيئاً . ثم ساءت
صحتها ، وأخذت تقرب من النهاية ، أما عيناها فقد خف
لمعانهما ، وأخذت تحيط بهما هالة شاحبة . أما لون خديها
فقد كان يزيد زهواً وحمرة ، وما هو بزهو الحياة ، ولكن للموت
زهواً خداعاً ينذر ، ولا يبشر .

وغالباً ما كانت تخرج مع ليست ، وتتكى على ذراعه .
وما كان سوء صحتها ليزيدها إلا انطلاقاً وتشدداً في طلب اللذة
والحياة . وما عسى أن يصدفها عن ذلك ؟ وقد علمت أن
النهاية معلومة محتومة . وألا حيلة تنجع فيما خطه القدر لها .
فلتأخذ ما تستطيع من الحياة قبل أن تهرب ! ولتصطد من

ملذاتها ما تقدر عليه ، لأن غداً لا تعرف من أمره شيئاً !
فكانت تغشى نوادى الرقص واللهو ، فلا تفتأ تدور راقصة حتى
تتلاشى عزيمتها ، كأنما تريد أن تستقبل الموت بعيدة عن الألم
بثوب رقصتها .

جاءها ليست يوماً يقول لها :

— « يا حبيبتى ! ينبغى أن ترتبى حياتك . إن برد باريس
يقتلك . أريد أن أسافر فى دورة إلى أواسط أوربا . وسأصل
إلى تركيا بدعوة من سلطانها . إنه ينتظرنى . تعالى معى حيث
نقضى شهر لذة على ضفاف البسفور . ما أشد زرقة السماء
هناك ! وما أبهى الطبيعة عارية بجهاها ! وما أدفاً أشعة
الشمس فيها !

تعالى معى ترتد لك القوة والحياة ! »

لم يأل ليست جهداً فى حمل محبوبته على مرافقته فى هذه
الرحلة العجيبة إلى مفاتن الشرق . فهو يصف لها المناظر
المتوهجة ، والمآذن الداہبة فى السماء ، والقصور الفخمة
وأبهاءها وأبوابها العاجية ، والحياة الإسلامية . وكانت هى تسمع
الوصف مشدودة يحملها لا شعورها إلى تلك العوالم ، وعيناها

مفتوحتان رانيتان كأنما تستمعان ، دون أن يثور فيها جنوح
إلى الرحيل .

وفي ربيع سنة ١٨٤٦ ترك ليست باريس ليقوم برحلته التي
نواها ، وضرب لمحبوبته لقاء يكون لقاء الوداع . لكنه جاء
وحده ، ولم تأت محبوبته إلى اللقاء لأنها كانت في عالم الأموات .

* * *

وبعد ذلك تأتي صحيفة مؤثرة في حياة ليست ، كانت بطلتها
الأميرة الروسية الجميلة « كارولين » . فقد لقيها للمرة الأولى
حين عروجه على مدينة « كييف » ، ومذراها أحسن أن هذه
المرأة هي التي كان ينبغي للقدر أن يجعلها قرينته في الأيام
السالفة .

وحين أشرف على بهو منزلها ألقى امرأة ناضجة في الثامنة
والعشرين من عمرها ، قد تمطت على كرسي ممدود . ليست
بالفاتحة حسناً ، ولكنها ذات وجه جذاب على نحافة ، ولون
أسمر ، وعينين نفاذتين ، وأنف أرعن ، وفم ليس بالمضموم
ولا بالمنفرج . وبدلاً من أن تمد يدها لزائرها كي يلثمها نهضت
ووضعت يديها على كتفيه ، فرفع بصره إليها ، وقالت له :

— كم سرتنى زيارتك التى دلت على طيب قلبك ، ورقة ذوقك ! إننى أقول لك : إن هذا لا يعدل ما كلفت به نفسك من تعب . ولكنى جد سعيدة بمراك . اجلس ! ... أتريد دخاناً ؟ أتريد شراباً ؟ أتريد ؟ صارحنى بما يسرك ! اجلس واتكىء هنا ! ...

وما إن استقرت بجانبه قليلاً حتى وثبت فجأة :

— آه ! إننى مجنونة ، أو لست تريده خمرأ ؟ لك شراب « الپورتو » ... لك هذا كله . والآن ، حدثنى يا سيدى ليست ! إنك أعظم عبقرية أطلت على الأرض . إنك بيتهوفن الثانى ... إننى أتابع كل ما تؤلفه ، وتعزفه ...

تأثر ليست بهذه اللهجة الأخاذة الحية ، وهو الذى كان غالباً حين يستمع إلى مدائح الناس له ولعزفه ، يردد ما بينه وبين نفسه : إنهم يظنون أنهم يحسنون إلى ... ولكنهم فى الحق إنما يصفقون « لباخ » و « موزارت » و « بيتهوفن » و « شومان » . إن النقل ليس بشيء فى الفن . إنه ليس إلا فوز ساعة ثم يغور . أما الخلق والإبداع والخلود فهى رسالة الفنان الحقيقى .

لم يعرف ليست امرأة أغزر شعوراً ، ولا أثقب فكراً ،
 ولا أسرع مدخلاً في النفوس من هذه المرأة التي تشبث بأحاسيسه
 في الزورة الأولى . فكانت تنتقل بأحاديثها من أديب إلى أديب ،
 ومن فنان إلى فنان ، إلى جملة أحاديث تناولت الأدب والفن
 والشعر ، تلقيها بنبرة موسيقية ، وشخصية آسرة لامعة ، كأنها
 تستمد لمعتها من شعلة لا تخبو . وخلال ذلك أخذت سماتها
 النفسية تفرض تأثيرها على ليست فرضاً ، وإن كانت ملامح
 وجهها لا تسعف بذلك .

وأخيراً قالت له :

— يا سيد ليست ! إنك أبداع عبقرية عرفتها ولمستها .
 لا أريد لك أن تظهر في المسارح والنوادي . وإني لأدفع لك
 ما تريد من مال . ألا تقضى الصيف معي على أرضي ؟
 سأجلب لك آلات العزف كلها . لا أحد يعكر عليك سكينتك .
 ستؤلف ، وتنظم ما شئت من سمفونيات . قل : نعم ! أرجوك
 أن تقبل توسلي وخضوعي . أقسم لي بالله على ذلك ...

ولم يجد ليست بداً من أن يتقبل ويقسم . وكان قصر
 الأميرة من القصور الناطقة ببذخها وترفها ، فسرحت في أفنائه

ذاهلين لاهيين ، مسترسلين في حياة فنية بوهيمية ، لا يجد
الخيال أرقى منها حين يبدع الخيال . وإذا خرجا من القصر
إلى الحقول نقلتهما عجلة فخمة ، وانطلقت بهما كأنها انفلتت
من أسر الطبيعة . وما كان ليخامر قلب ليست أروع من هذا
الواقع الذي فاق الخيال . أما مؤلفاته فأصبحت ابنة الحاجة
الفنية ، لا الحاجة المادية التي كانت تحته كالمهماز يشك
جانب الجواد . وإذا ما أتاه نصيب من المال وزعه للإعانات
والصدقات . وظل الحبيبان في روسيا طيلة الخريف والشتاء من
ذلك العام .

كانت هذه الجميلة ابنة والد تلقت بواسطته على رغم قسوته
أرفع جانب من ثقافة يتصورها الخيال . قضت فتوتها في سهول
أوكرانيا متسلية بركوب الصافنات مرة ، وآوية مرة إلى مكتبة
ضمت الألوف من الكتب المرصوفة على غير نظام . قرأت كل
شئ ، وتلقت ذاكرتها الخصبية كل شئ . وكثيراً ما كانت
تغادر روسيا لتطوف في أنحاء العواصم المختلفة ، فتطلع على
وجوهها المتباينة ، وتزور أمها المطلقة ، فتجمع بين الحياة
القروية البسيطة والحياة المدنية المعقدة ، وبذلك تتجاذبها عوامل

متضاربة ، وتغزوها ثقافات متنوعة ، وتجنح بها ميول شتى .
فهي بين دراسة درسا شاقا مجهدا ، ولاهية لهما يعبث بقيمة
الزمان !

هذا الكائن المجنح إلى كل ما يثيره الحس ، وإلى كل ما يبعثه
الفكر ، يميل إلى سلطان الجسد ميله إلى سلطان الفكر .
فهي تستطيع أن تظل أعواما دون أن تهزها عاطفة ، وهي تقدر
أن تجوع حتى لا يكفيها شيء من طعام الحس . وكأن هذا
الكائن بما احتواه من هذه الصفات وافق من ليست هواه الفنى
والعاطفى معاً .

ما بال ليست الذى أوتى قوة التأثير فى القلوب ينقاد إلى
هذه المرأة التى لا تملك الفتوة الساحرة والجمال المغرى ؟ يجب
ليست على هذا السؤال فى أحد كتبه ، ويعطى صورة ناطقة
لهذه المرأة : « فإذا هى امرأة يفتنك شحوبها ، وتسطع عيناها
بلهيب عيون الحور ، وينطق جسدها بالفتن الحافظة المتقلبة
كالبرق ، وتسحرك بنغمات صوتها الذى يستدرف الدمع من
حنايا مجهولة فى القلب ... ما أسهل عليها أن تسلى ! وما أسهل
عليها أن تؤثر ! ضمت إليها الذكاء والثقافة ، وجمعت ما لا يمكن

أن يُرى . وأمسكت - في لحظ بصرها - كل ما يمكن التنبؤ به .
تحسن التصرف فيما تعرفه ، وتحسن - حين تريد - السكوت قليلاً
أو كثيراً ، غارقة في اكتشاف الحالات حتى تريحها حالة ما ،
أو تبرق كلمة على عينيها ، أو تنزل خاطرة منزل الرضا
عندها ... »

حقاً ، لقد أفاد ليست بصحبة هذه المرأة التي كان لها
تأثير شديد في تكوين ثقافته ، وتبلور عقله . وطالما نهفته من
كسله إذا فكر في القعود ، وطالما حملته إلى البيان ليؤلف ويعزف
على مرأى منها ومسمع ، وهي تنفخ فيه من روحها قائلة له :
- هيا ! ألف الحانك يا ليست ، واكشف القناع عن هذا
الفنان المجهول !

على أن شيئاً واحداً كان يقدر أن يضع حدّاً لهذه الحياة
الهائمة ، فإن معه دعوة إلى مسرح مدينة « قمار » الجرمانية .
ولكنها لم تحل بينه وبين الرحيل . وأوصته بقولها :

- يا ليست ! اجعل من نفسك رسول الجمال ! وصل لربك
بإبداعك السعادة والتعزية للنفوس ! كن رسول الفنانين !
وهكذا استطاعت هذه المرأة بتأثيرها الروحي أن تكون نقطة

تحول في نفسه بما أوحى إليه من فكر سام ، وعقيدة نبيلة
لم يسبق له أن شعر بمثلهما .

— أجل ! سأفعل ذلك . إن غاية حياتنا هي المحبة . لقد
آمنت بالحب من أجلك . وبدون هذا الحب لا أريد الأرض ،
ولا السماء . فلنتبادل الحب — في ظل الله — دون أن يستطيع
الناس أن يفرقوا ما جمعهما الله إلى الأبد !

هذا هو الحب الجديد الذي أخذ بعنان ليست ، وهو
جديد لأنه لم يبلغ حبٌ غيره ما بلغه .

* * *

هذه هي - فيمار - المدينة الجرمانية الطافحة بالذكريات ،
 حيث نشأ الشاعران غوتى وشيللر ، وكانت معبد فكرهما وشعرهما .
 وحوطها اجتمع كثيرون من رجال الأدب والفن ، حتى لكأن
 المدينة هي « أثينا » البلاد الشمالية .

أراد أن يخلق ليست من هذه المدينة مدينة للموسيقى ،
 وقد وفق إلى ذلك كثيراً . فكان رسول الموسيقى المحدثه ، يعتنقها
 كدين له . وكان ليست مخلصاً لفنه كالعابد الأمين . ولو أن
 الموسيقى اختارت لها رسولا لما اختارت سوى ليست . فلا شيء
 يضعف إيمانه بها ، ولا ليل يغلب شعله محبته لها ، لأنها شعله
 مقدسة كلما ضربتها الريح ارتفعت ذوائبها في السماء . ولقد
 أحيا آثار من تقدموه من المعلمين ، كما أنه اكتشف عبقریات
 كثيرة كانت فقيرة إلى من يجلوها ويشجعها . وما هو ذا رب
 الموسيقى الحديثه « قاجنير » لم يكن إلا غرس يده ، ولو لم
 يمدده ليست بالقوة المادية والمعنوية لما أتاح القدر لهذا الرجل

المقطوع أن يلد شيئاً في الموسيقى .

وما كان ليست ذى القلب المتلهب أن يتراخى في حب
أميرته « كارولين » التي هجرت بيتها ووطنها ، واتبعت ظل
فاتنها العبقري . وفي عشمهما اجتمعت معازف النبغاء التي اهترت
بأنبل العواطف تحت أناملهم . فكانت إحدى حجرات
لبيتهوفن ، والأخرى لموزارت ، وغيرهما للدرس والتأليف . وحين
طبع ليست سمفونياته سطر كفاتحة لها هذه الكلمة :

« إلى التي أكملت إيماني بالحب

وأتمت رجائي خلال الألم ،

وعلمتني السعادة بالتضحية

إلى التي تظل رفيقة حياتي

ومصباح فكري ، وصلاتي الحية ، وسماء نفسي ...

إلى كارولين . »

ولم تكن الرسائل بين الحبيين - في أثناء الانفصال -

لتنقطع ، وإنما كانت مراسلتهم قصيدة حب متصلة ، وهو

الذي كتب من فيمار إليها : « في ١٢ كانون الثاني (يناير)

سنة ١٨٥١ الساعة الثامنة مساء .

« هاأناذا في هذه الغرفة ، على هذا المكتب ، أجلس قريباً من هذه النوافذ التي رأيتك منها كثيراً . كل الأمتعة التي تحيط بي إنما هي أنفاس عنك تحدثني بلغة ما أفصحها وما أحزنها ! وهذه الجدران تتمتع بما لا أدركه من سلام صارم ، كأنه سكون ، أو بسمه محسنة أعزتها أنت إياها . »
 وفي مرة ثانية ، حين ألقي نفسه منعزلاً بعيداً عنها كتب إليها : « في الساعة الثالثة ، من هذا الصباح دخلت غرفتك ، فحدثني كل شيء فيها عنك ، وترنم بذكرك . إن ذكرياتنا لتترقق على البحيرات والجبال . أنت قسمتي الوحيدة ، ومجدي ، وكنزي ، وهدوء حياتي »

ومن حق الأيام أن تهيبء لهما هذا الحق السعيد ، بما كانت تنعم به هذه الخليفة من جمال ومال . فجاءته تاركة زوجها تشغله عنها شواغل الحياة والصيد واللهو ، واجدة في قمار الجو الذي يلائم روحها وطموحها ، والقلب الذي يتغنى بها ، ويتعالى بها .
 « لحبك - يا كارولين - وغبطتك سأبدع كل جميل وجديد .
 أصوات قلبي كلها ستردد أغنية الحب التي تحلمين بها .
 سأبقى بجانبك حتى يتخطفني الموت . أنت حرיתי السامية ،

وما تبقى إن هو إلا تدجيل وعبودية . سينفجر قلبانا بينابيع
الحياة الحالدة . «

* * *

ولكن ما كل ما تردده الشفاه تسجله الحياة ، فسرعان ما دعا
ليست داعى السفر إلى باريس ، وفي باريس أفلاذ كبده ،
وذكريات فؤاده . وعرج في أثناء عودته على « زوريخ »
حيث كان قاجنير .

ها هو ذا قاجنير ينتظر لقاءه منذ الساعة السابعة صباحاً ،
وهاهما يلتقيان ، ويشهقان فرحاً لهذا اللقاء . إن قاجنير
يبكى ويضحك ، وإنه لزوبعة من الفرح . وليست يميل إليه
على قبحة ودمامة مظهره ، فيصحبه قاجنير إلى مسكنه ، وهو
مسكن وضع فيه أثاث بسيط ، وفيه زوجة قاجنير التي أخذت
تتولى خدمة الاثنين بنفسها . وكان قاجنير لا يصدق نفسه بهذا
اللقاء : وإنه ليثب فرحاً ، ويعانق ضيفه مرة ، ويخاطب قلبه
مرة . وكان يعزف حيناً ، ويغنى حيناً بحنجرتة الرنانة . وقد
يختلط غناؤهما مرة معاً . حقاً ، إنها لحظة رائعة تسجل كيف
يكون لقاء الفنانين !

جعلوا باريس وجهتهم بعد أن انضمت الأميرة إليهم ،
ونزلوا جميعاً في « نزل الأمراء » . والتقى ليست بأولاده ، وما كان
أشد تأثره بهذا اللقاء ، والتقى بأمه بعد يأس من لقائه ،
فنعموا حيناً من الزمن باجتماع الشمل ، حتى أهاب بليست
داعى الرحيل مرة ثانية إلى العواصم الشهيرة .

لقد كان ليست كثير التعلق ببناته ، على الرغم من أنه يحيا
معهن حياة منفصلة . ولكن متى انطفأت عاطفة الأبوة في
الصدر ؟ فهو يكتب إليهن من كل مكان ينزل فيه ، وهن
يكتبن إليه حيث يتوجه . وهو لا يفتأ يوصيهن بطهارة النفس ،
وعفة الضمير ، ويحثهن على إتقان العمل البيتي ، لأن المرأة
لا تكمل إلا ببيتها .

أما الأم فلم تكن لتطيب نفساً بهذا التودد ، وهذا التقرب ،
لأن نار الغيرة من هذه الخليفة المستبدة تأكل قابها . فهي تريد
إذلالها ، وتريد أن تقصى بناتها عن والدهن لسلوكه الشاذ .
وقد كتبت إليهن من « لاهاي » هذا الكتاب القاسي ، وكله
تقريع بهذا الوالد الذي هجر بيته ، وهذه الأميرة الخليفة التي
تتولى أمر هذا البيت ، وتنعى عليهن أن يأكلن رغيفاً تقدمه

امرأة غريبة لم تكن ، ولن تكون ، يوماً زوجة لأبيهن . وهي تريد
لهن أن يحفظن شرفهن ، وتؤثر لهن أن يعملن بأيديهن ، ويقفن
على الطرق سائلات على أن يرضين بهذه الحياة المفعمة
خزياً وعماراً .

« قولى لأبيك يا بلاندين ! إن كبر نفسك يملكك على أن
تخدمى دون أن ترضى بالبقاء عند هذه المرأة الغريبة ، وإنك
تأبين الحياة المترفة قائمة على غير شرف .

هذا حالكن عندى . أما حالى فقد وكلتُ أمرى إلى الله .

إنكن لى ، وأنا لكن ، شئن أم أبيتن .

آه يا بناتى الشامحات رأساً ، عشن فى شموخكن دائماً !

انى سأحملكن بذراعى إلى منابت السنديان الهرم حيث كان
يحللم ديكارت ، وإلى الشواطىء القائمة على هذا الأوقيانوس
المترامى . إننى لن أخشى هذا الامتداد ، ولا هذه اللانهاية ،
لأننى أشعر دائماً بأنكن معى ... »

على أن هذه الكتابة المؤثرة لم تكن لتبرر موقف هذه الأم
التي وكلت أمر الاعتناء بشئون أولادها إلى الوالد ، وهي لا تفكر
فى الحياة إلا فى شئون زينتها وحايها ، دون أن يقلقها شأن من

شئون أولادها، في حين كانت الخليفة الغربية تعنى بهن . وتعمل على رعايتهن كأُم كريمة العاطفة . وقد كان ليست يطلع على حملاتها ، فلا يقابلها إلا بالهزء ، لأنه قد أرضى في اعتقاده وجدانه ، وقام بما يفرضه عليه واجبه الأبوى والأدبى .

مرّ على ليست دور سعيد في حياته ، عرف فيه السكينة ، ونعمة الطمأنينة ، حين كان يجلس بين بناته ، يعزف لهن من مقاطيعه الساحرة ، ويبت فيهن روحاً عالية من السمو الفنى ، وقد تفتحت في نفوسهن غرائز الحياة . أما كوسما التي طالما أذهلها فاجنير وفتنها بمظاهر نبوغه ، ومنعها عنه أنه مقيد بزوجة ، فقد جاءها حظها ليربطها برئيس فرقة موسيقية هو « هانس دى بيلوف » الرجل المضطرب الذي كان يشعر بميل خفى إلى رفيقة توأسيه في حياته وهو لا يجد هذا الرفيق . وفجأة قاده القدر إلى ابنة ليست كوسما التي قبلت به في النهاية رفيقاً !

وإذا استرسل الفتى في أحلامه ، وخال أن الدهر صفا له ،
 وأن الأيام سقته الكأس الصافية تبذلت الكأس الصافية بكأس
 تطوف الأكدار في قرارها . ولا بد أن يجرع الفتى ، لأنه
 محمول على ما يشرب . فإذا بليست يفجع بولده البكر
 « دانيال » في مستقبل الشباب ، فتك به السل دون أن يقدر
 الطب على استنقاذه ، فكان موته ضربة لأمانى الأب ، بات
 لها ذاهلا ، غارقاً في وحشة لا نهاية لها . وعقبت الأيام على
 فاجعته بحادثة طلاق خليلته كارولين من زوجها ، وانفصالها عنه
 ريثما تم مراسم الطلاق . فإذا بليست ذلك الفتى الذى كان
 مرمى عيون الغوانى ، يرشقه بالورد ، ويحملن إليه القبلات على
 الشفاه طائرة ، بلغ الآن الخمسين من العمر ، وأصابه ما يصيب
 ابن الخمسين ، فابيض شعره الفاحم ، واعوجت قناته المستقيمة ،
 وانخفض ناظره المخلق ، واحترفت جوانب معدته بالكحول . إن
 هذه الأسباب كلها هي نذر الكهولة التى لا محيد عنها . وكأن

هذه النذر أيقظت في نفسه الروح الدينية القديمة التي خالجت
نفسه في السابعة عشرة من عمره ، حين راح يتوسل إلى أبيه
أن يدرجه في حياة الرهبان النساك . وكان بلوغه هذا العمر حملاً
على هذا الاعتراف :

« إن كل ما فكرت فيه من خير منذ اثني عشر عاماً يعود
فضله إلى المرأة التي أقدر أن أدعوها الزوجة الرفيعة . إنني
لا أقدر أن أخط اسمها دون رجفة تعرفني . إن أفراحي
انحدرت عنها ، وآلامى كلها احتملها من أجل راحة نفسها .
إنها رضيت بأن تشركني في حياتي وعملي ، وآمالي وآلامي .
كم من شدة استطاعت أن تخفف وطأتها على برقتها !
وكم كانت تحمل كلماتها المعزية الشجاعة والجلد إلى نفسي !
بل إنها كانت تندفع بكرم طبيعتها إلى مقاسمتي أعباء الحياة ،
دون أن تمن عليّ بنشبتها وزخرف حياتها .

إنني مدين بما في نفسي من خير إلى كارولين فهي التي
رعت نفسي ، وصانت مالي ، ووضعت لحياتي مقاييس مترفة .
وإنني دعوتها إلى رعاية ما أملك بعد موتي ، وتقسيمه تقسيماً
عادلاً بين ابنتي : بلاندين ، وكوسيا .

ووصيتي الأخيرة أن أدفن ببساطة دون شهادة أحد . وما
أفضل الليل شهيداً على رمسى ! »

ليس هذا باعتراف ، وإنما هو وصية أوحى بها إليه نذر
الكهولة . على أن كارولين كانت لا تزال تحيا معه خليلية غير
شرعية . فكان يؤله هذا الوضع ، ويتمنى أن تسنح له
الفرصة في تثبيت العلائق وجعلها شرعية . ولكن عوائق عسيرة
يضعها القدر كل مرة كانت تحول دون تحقيق هذه الغاية .
ولكن ما همه أن يعترف له المجتمع بذلك الحق أو لا يعترف
ما دامت كارولين له .

لا بد للحوادث أن تتوالى على هذا القلب الحساس ، فلا
تغادره لحظة حتى تغزوه بأشد وأدهى . فتلك ابنته بلاندين
التي كانت جميلة ، آية في ذكائها وثقافتها أصبحت زوجة ،
وأنجبت صغيراً كان ريحانة جده . ولكن الصغير لم يلبث أن
غادر الحياة غير تارك إلا حسرة في النفس ، وحملت صغيراً
آخر طالما ذهلت به ، ووصفته بلحده وصفاً يدل على مبلغ
ما تصل إليه عاطفة الأمومة في الصدر . ولكن هذا الوضع
الثاني قضى في هذه المرة على حياة الأم وهي في مقتبل الشباب .

لقد فاجأ النبأ ليست وهو في روما ، فزرع بقايا أمله ،
 وهدّ ما ظل متمسكاً منه ، فضاق بالحياة ذرعاً ، وغدت القيم
 الفلسفية عنده سفسطات باطلة أمام هذه الحفرة المجهولة التي
 انفجرت ثانية لتلتقف كائناً عزيزاً .

غادر بيته ولجأ إلى دير قريب من المدينة طمعاً في السلوان ،
 فكان لا يؤنسه من الأصوات إلا قرع النواقيس ، وقد زاره
 كثيرون من الرهبان والقسيسين مستأنسين بهذا الناسك الحديد .
 وقد حدثه أحدهم أكثر من مرة في شأن علاقته مع خليلته ،
 فأجاب :

— إن أرواحنا قد اجتمعت . أو ليس هذا القران ملائماً
 لرغبة السماء ؟ إن الأميرة لذات روح مطهرة ، وإرادتها قد
 تمازجت مع إرادتي ، وصلواتنا اتحدت معاً في عروجها إلى
 السماء .

أما حياته فكانت رتيبة متشابهة ، وكان لا يعزبه في هذا
 المجهل المنعزل إلا تأمله الصامت المتواصل ، أو تأليف الموسيقى
 الدينية ، حيث أبدع خير القطع في ذلك . أما نبأ اعتزاله
 ونسكه فقد كان ذا وقع مختلف على أفئدة الناس في أوربا .

فمنهم من قال : إنه نوع جديد من الدعاية ، ومن قائل :
لا نصدق أن مثل هذا يغدو زاهداً . ومن محب يقول أسفاً :
— لقد فجعنا في العبقرية !

أما الأميرة فقد اعتزلت العالم أيضاً بدورها ، وانصرفت إلى
ملء فراغها بالمطالعة المتنوعة ، والتدخين المتواصل . وبدأت
تترأى لها أشباح تمثلها لها مخيلتها ، في حين راح ليست عاكفاً
على عبقريته المبدعة ، يجاور بابه ندوة المصور « رافائيل »
ولا تبعد عنه قبة « ميشيل أنج » المبدع . كأنما التصوير يريد
أن يعانق الموسيقى . وحقاً لقد آتى هذا التجاور أكله . فإن
الصفحات التي كتبها هنالك ليست كانت من الصفحات
الرائعات .

لقد رأينا ابنته كوسيا تقترن بهانس دي بيلوف أحد طلاب
أبيها . لكن هذا الطالب ما كان يملأ عينيها بوجهه القبيح ومعالمه
البشعة ، وطبيعته القلقة المريضة . وهي التي أولعت زمناً
بقاجنير للنظرة الأولى .

زارها قاجنير في بيتها ، بعد أن تقلب عليه الزمن ، وأعطاه
حظاً غير ضئيل من الشهرة والنبوغ . فكانت هذه الزورة

مصدر مفاجأة غريبة لكلا القلبين . أما هي فقد رأت أن
صفحة من الماضي الجميل تفتحت ، وأما هو فقد رأى فيها
غادة جديدة جميلة ، متفتحة العقل ، خصبة الخيال . ففتح
هذا اللقاء لهما أفقاً جديداً من الحب ، يزيد الفن من ألوانه
وظلاله . وإذا بهذا اللقاء ينمى فيهما هوى مبرحاً لا يقدران
بعده أن ينفصلا ... وهيهات لهذا الحب - مهما عملا على
كتمانها - إلا أن تظهر أسراره ! وهيهات لذلك الزوج المسكين
- مهما استطالت غباوته - إلا أن يطلع على هذه الحيانة
متمثلة في زوجته ! فكانت الحيانة ضربة عنيفة لآماله وهو
الذي يحيا بدون أمل ! زوجة وضع فيها ثقته وأمله تنقض الآن
هذه الثقة ، وصديق طالما أحبه وأكرم فيه نبوغه يطعن صديقه
في أعز العلائق ! فليتألم الآن ! لأن الحياة أفقدته الزوجة
والصديق ، وماذا في الحياة بعد ذهاب الزوجة والصديق ؟ !
راح إلى ليست يشكو له أمر ابنته ، ويطلب رأيه الحازم
في الحادث .

- يا معلمى ! إننى بائس يائس ... ما عساي أصنع ؟
ليس من الحق أن أخاصم صديقى فاجنير ذا الآثار الرائعة .

إن ابنتك آثرته على ... لا أطيق هذا .

وكانت دموعه المسفوحة تتم ما يعجز لسانه عن بيانه .
 فعمل ليست على تهدئة نفسه ، والتخفيف من حدة ألمه . لكن
 هانس دى بيلوف كان يدرك أن تأثير فاجنير في نفس كوسما
 هو أبعد من أن يقفه شيء . لأنه تأثير الجو الفنى الذى يعبث
 بالألباب ، ويهز النفوس . فلم يكن له بعد هذه الحيبة إلا دمعات
 يذرفها ، وكلمات من ليست تزيده أملا بعودة زوجته الهاربة
 إليه . ولكن قد جمعها وفاجنير الفن وجماله فلا يمكن لشيء
 أن يفرقهما .

لم يقيم ليست في مطرح واحد ، فقد كان ينتقل بين قمار
 وروما بثوبه الأسود الكهنوتى ، حيث طلابه يستقبلونه بحماسة
 في كل مكان ، وهو - بالرغم من بلوغه الخمسين - ظل
 ذا تأثير عجيب يستهوى النساء ، فيسحرهن ، ويجتذبنهن ،
 وكان المعجبون بفنه يتهافتون على قمار من كل صوب ، كأنهم
 وفود الحجيج إلى المواسم . وقد ظلت نفسه الحية - التى أبت
 أن تعترف بفوارق الزمان - تميل إلى الحياة المترفة والجمال أنى
 كان . على أن وجهه طفقت تجاعيد الهرم ترتسم فيه لتظهره

قاسياً ، وأخذ الشيب يدب إلى فوديه الفاحمين . ولكن عينيه
العميقتين ، ظلتا على بريقهما الخاطف المؤثر . لكن لشد
ما تستحيل صرامة وجهه إلى رقة ناعمة حين يجلس إلى امرأة !

* * *

في سنة ١٨٧٢ طلقت كوسما زوجها لتقترن بفتى أحلامها
 فاجنير ولم يسع ليست إلا أن يوافق على هذا القران . وهو الذي
 كان يكرمه ويشيد بمستقبله وعبقريته . ومنذ هذا العام نفسه لم
 يبق بين ليست ومحبوبته الأميرة إلا محبة أخوية صافية طهرتها
 الأحداث . فكان يأتي روما ، ويزورها ليستمتعا بالنشوة
 الفنية العطرة ، وبعد هذه الزيارات المتتالية طبع على
 جبينها قبلة الصداقة ، واعتزل في دير « فرانسيسكا رومانا »
 حيث اتخذته له مثوى .

هذا الفنان الذي انصب عليه المال هو فقير الآن . لقد
 وهب كل ما عنده ، وماذا عساه يريد من خيرات الأرض ؟
 كل ما راح يكسبه كان يقدمه صدقات .

لقد كانت نهاية حياته خالصة نقية ساكنة . إنه عاش للخير
 والجمال المطلق . وإذا هو منح حياته وحماسه رجال العقل والفن
 فإنه منح — بدوره أيضاً — محبته الأشقياء والتعساء ، وإذا

ما ركبته خطيئة اللحم والدم يوماً فإنه لم يرم يوماً إلى رذيلة ،
 وإنما اتخذ الحب مطية إلهام لآثاره الحية التي
 يخلدها الفن .

قد استماله من الحياة الطريقة الرومانية وهو في نسكه وزهده ،
 فكان يطلب الظل الرقيق بين الحدائق الناعسة ، والتماثيل القديمة ،
 والنوافير التي تقذف بالفضة البيضاء سائلة كالسبائك ، أو
 الحبات من اللؤلؤ بين الأزهار والورود . ولعل هذا النوع من
 الحياة الصافية المطمئنة كان يلائم هذا المزاج الصافي الذي خلص
 من أدران الدنيا وخبثها الماضي ليتسنى له أن يعيش
 عيشة راضية .

ومن بعد هذا الصفاء كانت النهاية تقترب رويداً رويداً .
 ففي قمار وهو يعرج على سلم زلت به قدمه ، فسقط ، فاحتملوه
 إلى سريره ، فأقام ريثما عاوده الشفاء ، لكن حادثة أخرى
 تتالت عليه أقعدته ، وما أكثر الحوادث على عجلة الإنسان
 حين يشيخ !

ها هو ذا قد بردت أطرافه الحارة ، وتلاشت حمية دمه ،
 فكان يطلب النار للدفع حتى أيام الصيف ، وتبدلت ملامحه ،

وتوارى ذلك الشخص الفنى ليحل محله شخص منهوك القوى ،
 خائر العزيمة ، ليس فى جسمه إلا شبح ناحل ! أخذه العجز
 حتى عن القراءة ، وكان يشعر باقتراب النهاية . ولكن السنديانة
 الجبارة تأبى أن تلين . فكان يتحامل على نفسه ليوهم أنه لا يزال
 يتقبل الحياة .

وفى حزيران (يونية) سنة ١٨٨٦ أنس فى نفسه قدرة على
 الذهاب من قمار إلى « بايروت » حيث كان بيت ابنته
 — كوسيا — منذ فقدت زوجها فاجنير . وصل إلى البيت برغم
 ضعف جسده الذى يرزح تحت أثقال أربعة وسبعين عاماً .
 فارتمت عليه ابنته مجهشة فى البكاء .

— ها أنت ذا أخيراً قد أتيت ... لقد مر على موته ثلاثة
 أعوام . وأنا غارقة فى الحزن والحداد . إن قدومك هذا هو
 فرحى الأول .

نزل ليست عند ابنته ، وكان يطمح — على رغم كبره وعجزه —
 إلى زيارة كل مطرح فى القرية ، وابنته تتوسل إليه أن يلزم
 الراحة . وفى أثناء عودته من إحدى زيارته ألنى نفسه فى منزل
 أقام فيه عاشقان ، وكأنما آلمهما مشهد هذا الكاهن الشيخ

بييت معهما ، لأنه يكدر عليهما خلوة حبهما وهنأهما . ولكن
ليست الشيخ تظاهر بالرقاد والتعب الملح ، فاضطجعا - غير
بعيدين عنه - يتساقيان كؤوس الهوى بصمت ونعيم . ولكن
ليالى الصيف الثقيلة الحارة ضايقتهما ، ففتحا نوافذ الحجره ،
فأصابت الريح الباردة جسد ليست الضعيف الهشن ، واحتمل
البرد مرغماً حتى لا يزعج هذين العاشقين فى عشهما ، وهو
الذى يعرف طعم العشق ، ولذاذة الهوى فى الشباب . لكن رعشة
البرد هزت جسده . وما إن بلغ مأمنه فى « بايروت » حتى علقته
بجسمه حمى شديدة ألقته طريحاً . إنه يريد أن يشاهد أوبرا
« تريستان وايزولد » من تلحين فاجنير . لكن هذه الحمى
ألزمته فراشه ، وكان كلما صحا من غفوته طلب أن يستمع إلى
هذه الأوبرا .

عاده الأطباء ، وألفوا أن لا رجاء فى شفائه ، فسألته ابنته :
- أبتاه ! هل تريد أحداً يسليك .

وهى تريد كاهناً يعترف إليه قبل تسليم الروح . لكن ليست
رد على سؤالها بصرامة وحزم .
- لا . لا . لا أريد أحداً !

فاه بهذه الكلمة ، ورددها ، ثم ردها . وفجأة تدرج
على السرير كتلة واحدة ، أخرجت منها آخر نفس لهذا الفنان
العظيم .

حقاً إنها نهاية عظيمة لعبقري عظيم .

خاتمة !

هذه هي قصة حياة هذا الموسيقى النابغة بكل ما للقصة من حياة ! وهي أجدر بأن تكون قصة حياة إنسان قبل أن تكون قصة حياة فنان . على أن الفنان لا بد له من حوادث تطرق حياته ، وتعمل على تكوينه وتوجيهه في الطريق الذي تختاره له . فهو حين يسلك طريقه إلى مشارف الحلود والعظمة يجتاز مهاوى كثيرة من الخيبة والانحطاط ، يزلق فيها كثيراً ، وينتفض منها كثيراً . وكثيراً ما جادت الأشواك بنفسها لإبداع وردة تهتز عليها ، وكثيراً ما تمخضت الأخلاق المريضة بخلق نفس كريمة . وكثيراً ما كانت منابت الروح الطيب من منابت الرجس وأهواء اللحم والدم !

وليست حياة الفنان بصفحة نقية بيضاء ، لا نجد فيها إلا سطور العلاء . وإن أردنا أن نتمثلها هذا التمثل فلنقل إذأ :
ما أفرغها صفحة خالية من الحياة !

لأن الحياة الصادقة بمجموعها إنما هي متناقضات متفاعلة ،

وصراع باطنى أزلى فى عوالم النفس التى لا تتعدد . وحياة العظيم إنما هى خلاصة هذا التفاعل الشديد فى داخل النفس التى يجذبها مرة ميلها الغلاب إلى التعلق بالحياة الواقعية ، فتأكل كما يأكل الناس ، وتحس كما يحس الناس . ومرة يجذبها حب التسامى الذى يريد أن يفردا عن الناس ويعمل على تنقيتها ومسح جوانبها حتى تكون نفساً إنسانية وغير إنسانية .

ولعل حياة هذا الموسيقى - بما رافقها من قلق واطمئنان ، وشك وإيمان ، والتفات إلى عالم الروح حيناً ، وانغماس فى عالم المادة حيناً ، حتى ليكون صاحبها من نفسه بين عالمين منفصلين ، منشقين ، لا يدرى الواحد بالآخر - لعل هذه حياة هى خير مثل للحياة الفنية التى تعتلج فى صدر كل عظيم فنان ، إذ لا تتسم حياة العظيم بالهدوء والاستقرار ، وإنما أبرز ما تتسم به هو هذا الصراع الخفى المتواصل فى بواطن نفسه . ولن يزال هذا الصراع عاملاً فى نفسه حتى ينجلي : عن أى عالم يستبد به ، ويميل إليه ؟

وفى قصة « ليست » شاهد عدل على هذه الحياة ، لأن تاريخ الفن لا يعرف حياة فنية زخرت بمتباين الأهواء ، وطغت

بمختلف الميول كمثل هذه الحياة العجيبة ، فصاحبها يهيم في الموسيقى ، ومن ورائها أشياء تفرض نفسها على محبها ، من هذه الأشياء المرأة التي تعجيل رجل الفن والموسيقى ، وتصهر عاطفتها فيه ، لأنه عايد في محاريب بيتها . ولكن إلى أي مدى تسمح بنفسها وتجود بحبها ؟

حتى إذا أيقن ليست أنه اجترح باسم الفن خطايا لحمية دموية غلب عليه نداء آخر عميق ، هو نداء الفن المحض الذي يلبس لباس الدين والتقوى ، وراح يزهد في الدنيا ولذاذاتها ويعاف الفن نفسه — وإن كان الفن وسيلة إلى الجمال المطلق . ولا ريب أن هذا التردد إذا تمكن من النفس عصف بها ، وعبث بأهوائها ، وكان سبباً من أسباب يقظتها وخمولها ، ورفعها وانحطاطها ، وألمها ولذاتها ، لأن الحياة المتحركة ذاتها نعمة مخلدة . ذهب ليست ضحية هذا التردد ، وجعل من حياته كلها مسرحاً تتعانق فيه المتناقضات من حياته وفنه وبيته ، حتى إذا ما انتهى دوره أو كاد ينتهي وجد المثل الأعلى الفني الذي كان يعبده ويقصده ويسيطر عليه ، ويجد — ولات حين أوان — أن المرأة التي أحبها بروحها ، وهصرها بلحمها ودمها

لم تكن إلا وسيلة لتركيز الجمال المطلق الذي يصير إليه ،
وتشرق نفسه به . فحبه قد يعبق برائحة الجسد ، وهو اه يتأجج
بحرارة الدم . لكنه - إلى ذلك - لم يدنس أبداً روحه الصافية ،
لأن ذلك كله لم يكن منه إلا كاللثياب المستعارة يرتديها وينزعها .
أما الجوهر فهو باق على صفائه دائماً ، لأن الله الذي ضيعه
بالفن صغيراً رده إليه الفن كبيراً .

أولست حياة الفنان بعد ذلك هي قبل كل شىء حياة
الإنسان ، تردد بين خطيئة وتوبة ، وتتناوب بين انحطاط
وسمو ، حتى تعود نقية كما جاءت نقية .
ألا تباركت يد الفن ، لأنها تجرح وتأسو ، وتجعل من الطين
الحقير روحاً مجنحاً !

المصادر :

- ١ عدد خاص من المجلة الموسيقية بحياة ليست
- ٢ رسائل مسافر - لجورج صاند
- ٣ مراسلات ليست ومدام أجولت
- ٤ مراسلات ليست مع ابنته
- ٥ ليست وأولاده - لروبير بوري
- ٦ ليست - جودي بورتاليس
- ٧ ليست مع العشاق الرومانتيقيين لبول ريبو
- ٨ تاريخ الموسيقى العالمية - طبعة لاروس
- ٩ تاريخ الموسيقى - لكومباريو
- ١٠ حياة شوبان - ليست

ظهر حديثاً

الجديد في التهجي والمطالعة

للأستاذة حامد عبد القادر ومحمد أبو بكر إبراهيم
ومحمد عطية الإبراشي والدكتور عبد العزيز عبد المجيد .

كتاب للمبتدئين يتمشى مع أحدث طرق التربية وعلم
النفوس ، في عرض مشوق جذاب ، وخط واضح جميل
الجزء الأول لتلاميذ المدارس الأولية
النموذجية والمدارس الأولية .

ظهر حديثاً

الجديد في اللغة العربية

للدكتور عبد العزيز عبد المجيد والأستاذة حامد عبد القادر
ومحمد أبو بكر إبراهيم ومحمد عطية الإبراشي وسيد قطب .

سلسلة جديدة لتلاميذ المدارس الابتدائية والأولية ،
يشتمل الكتاب الواحد منها على جميع فروع اللغة في
أسلوب سهل وموضوعات طريفة وطبع جميل وخط واضح .
الجزء الأول للسنة الأولى الابتدائية والثالثة الأولية .
دار المعارف بمصر

ظهر حديثاً

القصة في التربية

للدكتور عبد العزيز عبد المجيد

كتاب يعتبر الأول من نوعه ، يُعد المدرسين
والمدرسات لسرد القصة وتدريسها ويوجههم الوجهة
النافعة الفعالة وفقاً لقواعد التربية الحديثة .

دار المعارف بمصر

الثنى ٢٠ قرشاً

ظهر حديثاً

المسند

للإمام أحمد بن حنبل

تحقيق الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر

الكتاب الذى جعله مؤلفه للناس إماماً يرجعون إليه
فى أمور السنة .

٨٠

الجزء السادس

١٠٠

الجزء الأول (طبعة ثانية)

مكتبة الأطفال

للأستاذ كامل كيلاني

مجموعة نفيسة تحتوى على أكثر من أربعين
كتاباً مصوراً . وقد فازت بإعجاب رجال
التربية والتعليم وبرضى الجمهور واستحسانه
في جميع البلاد العربية .

دار المعارف بمصر

المكتبة الحديثة للأطفال

للأستاذ محمد عطية الإبراشي

مجموعة قصص عذبة اللغة

جميلة التصوير

روعيت فيها ميول الأطفال

وأحدث النظريات

في التربية

وعلم النفس

القصص المدرسية

للأستاذ محمد سعيد العريان

٥

٥

٥

٥

٥

أميرة الواحة

سميحة ومديحة

تاجر دمشق

معمل الذهب

باقى كتب هذه المجموعة تحت الطبع

ذخائر العرب

مجموعة نفيسة تنتظم أقوى ما في تراثنا العربي من آثار
خالدة مجلوة في حلة جميلة أنيقة وعلى وجه دقيق من
التحقيق العلمي بمعاونة حضرات الأساتذة :

محمد حلمي عيسى باشا والدكتور طه حسين بك
والأستاذ أحمد أمين بك والدكتور عبد الوهاب عزام بك
والشيخ أحمد محمد شاكر والأستاذ إبراهيم مصطفى .

ظهر منها :

١ - مجالس ثعلب لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب
(قسمان) تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون .

٢ - جمهرة أنساب العرب لابن حزم تحقيق المستشرق
الأستاذ أ . ل . بروفنسال .

٣ - إصلاح المنطق لابن السكيت تحقيق الشيخ أحمد
محمد شاكر والأستاذ عبد السلام محمد هارون .

تصدرها دار المعارف بمصر

روضه الطفل



- ١ أرنبو والكنز
- ٢ كنكت المدهش
- ٣ عيد ميلاد فلة
- ٤ فرفرو والجرس
- ٥ ذيل الفأر
- ٦ البطة السوداء

أول مجموعة من نوعها
باللغة العربية يمجّد
الطفل فيها قصصاً مفيدة
مزينة بالصّور المبتكرة
ومطبوعة بالألوان الجميلة

المجموعة الجديرة بأن توضع بين يدي كل طفل
لتصعد به إلى الدرّجة الأولى من سلم المعرفة
في حبّ من المتعة والتسلية.....
تصدرها دار المعارف بمصر
بمعاونة السيدة أمينة السعيد والدكتور يوسف مراد والأستاذ سيد قطب



أفكارنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة
يجد فيها الطالب في جميع مراحل النمو
المتعة والثقافة وهمو النفس .

الكتب التي ظهرت :

- | | | |
|---|---------------------|-------------------------------|
| ١ | عمرون شاه | تأليف |
| ٢ | مملكة السحر | للكاتب الفرنسى شارل بيرو |
| ٣ | كريم الدين البغدادى | تأليف |
| ٤ | آلة الزمان | عن الكاتب الإنجليزى ه.ج. ويلز |
| ٥ | الأمير والفقير | عن الكاتب الأمريكى مارك توين |
| ٦ | كتاب الأدغال | للكاتب الإنجليزى رديارد كبلنج |

ثمان الكتاب ١٠ قروش

تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك



دار المعارف بمصر

أسست بالقاهرة سنة ١٨٩٠

يسرها أن تعلن جمهور المؤلفين أنها نزولا
على رغبة غير واحد من أصدقائها الكتاب
قد أنشأت قسما تجارياً يتولى طبع المؤلفات
على نفقة أصحابها بأسعار مناسبة مع مراعاة
ما أثر عن « دار المعارف » من إخراج
تتوافر فيه العناية والإتقان والفن الجميل

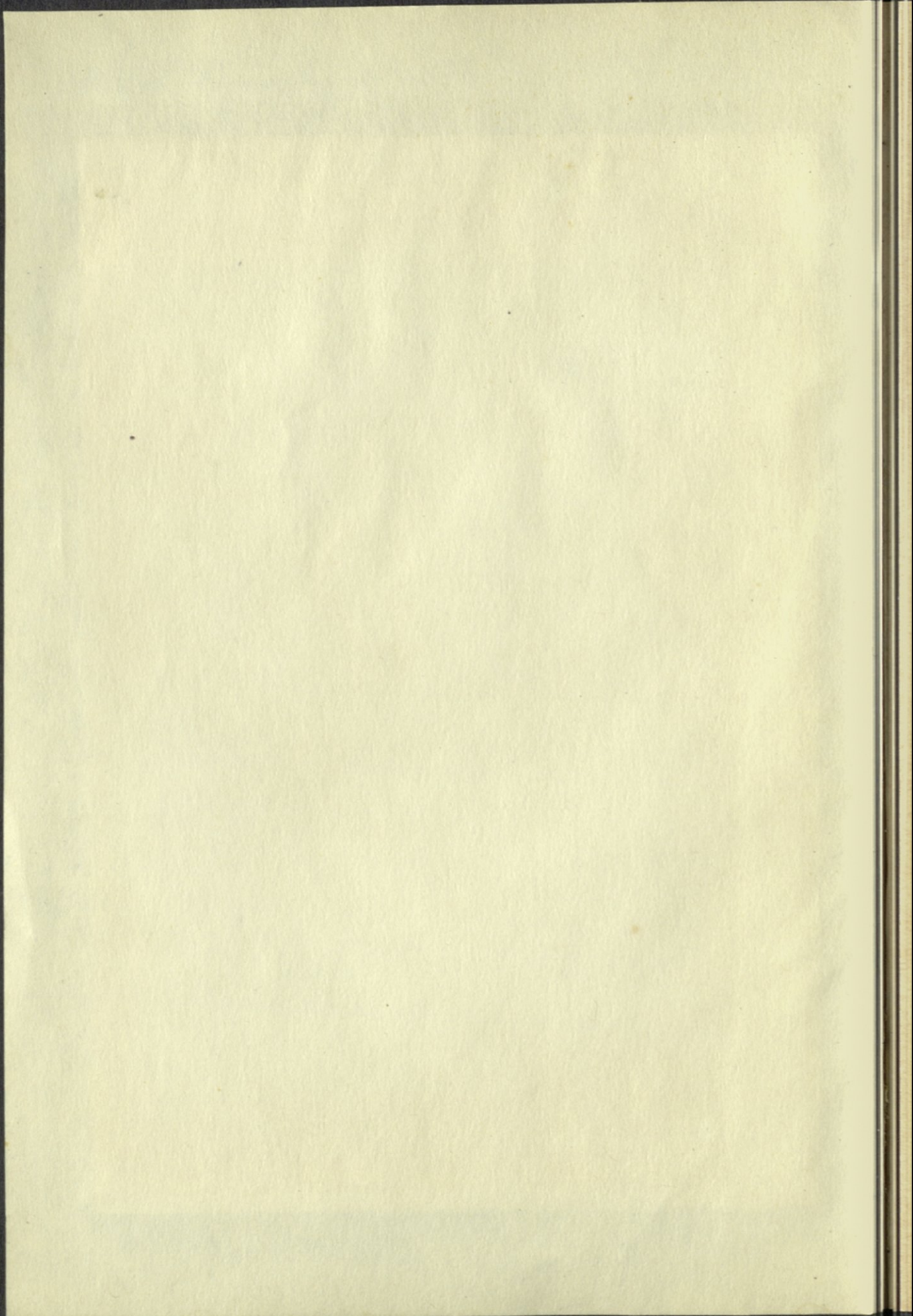
الإسكندرية :

٢ ميدان محمد علي

القاهرة :

٧٠ شارع الفجالة

س. ت. ٥٢١٢١



827.8439:L774hA:c.2

الهنداوى ، خليل

فرانز ليست

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01053009

927.8439
L774hA
c.2

927.8439

L774hA

C.2